ستيفان زفايغ

FIFA WORLD CUP RUSSIA 2018

مانديل بائع الكتب القديمة

تليها «المجموعة الخفية»

ترجمة: أبو بكر العيادي

تقديم: العادل خضر

ستيفان زفايغ

ماندِل
بائعُ الكُتُبِ القديمة

تليها «المجموعة الخفيّة»

ترجمة: أبو بكر العيّادي

مَانْدِيل
بَائِعُ الكُتُبِ القَدِيمَة

العنوان الأصليّ لقصّة «ماندال بائع الكتب القديمة»
Buchmendel
Stefan Zweig
عنوان النسخة المعتمدة في هذه الترجمة
Le Bouquiniste Mendel
Stefan Zweig
Traduction par Manfred Schenker

العنوان الأصليّ لقصّة «المجموعة الخفيّة»
Die unsichtbare Sammlung
Stefan Zweig
عنوان النسخة المعتمدة في هذه الترجمة
La Collection invisible
Stefan Zweig
Traduction par Manfred Schenker

الكاتب: **ستيفان زفايغ**

عنوان الكتاب: **ماندال بائع الكتب القديمة**

ترجمة: **أبو بكر العيّادي**

مراجعة وتقديم: **العادل خضر**

خط الغلاف: **الفنّان سمير قويعة**

تصميم الغلاف: **الشاعر محمّد النبهان**

ر.د.م.ك: **978-9938-992-61-8**

الطبعة الأولى: 2018

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 537090811(966+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

مسعى للنشر والتوزيع

Masaa Publishing & Distribution

Ottawa, ON. Canada

info@masaapublishing.com

www.masaapublishing.com

ماندیل بائع الكتب القديمة

عندما عدت إلى فيينّا، بعد جولةٍ في الضاحية، فاجأني وابلٌ من المطر. كان المارة، وقد جلدتهم الأمطار، يهربون إلى الأكنان وإلى مظلاّت الأبواب، فبحثت أنا أيضًا عن ملاذ. ولحسن الحظّ دائمًا ما تجد في فيينّا مقهى ينتظرك عند المنعطف في كلّ شارع. لذتُ بالمقهى المقابل، والقبّعة تقطر فوق كتفيّ المبلّلتيْن. في الداخل تبيّن لي أنه واحد من كباريهات الضاحية ذات الطابع التقليدي لفيينّا. هناك، لا وجود لبهرج عصري كبهرج كباريهات وسط المدينة المُحاكي للطابع الألماني مُحاكاةً فجّةً؛ كان مقهى على موضة فيينّا العتيقة، يعجّ بأناس بسطاء يستهلكون الجرائد أكثر من استهلاكهم المرطّبات. في تلك الساعة من المساء، يخيّم هواءٌ ثخين، مَشوبٌ بنفثات لولبيّة من الدخان الأزرق. مع ذلك، كان المقهى ذا مظهر لائق، بمقاعده المنجّدة بالمخمل وخزينته الألمنيوم اللامعة. ولكنّي لفرط عجلتي، لم أكلّف نفسي حتى عناء قراءة اللافتة قبل الدخول. ثم ما الجدوى؟ -كنت جالسا في الدفء. أنظر بنفاد صبر عبر الزجاج المغطى بالبخار، وأنتظر ابتعاد الوابل المزعج بضعة كيلومترات.

في فراغي، بدأتُ أستكين إلى السلبيّة الرخوة التي كانت تنساب خلسة من كل مقهى فيينّي أصيل. ورحتُ، وأنا في تلك الحال من الغموض، أتفرّس في وجوه الناس وجهًا وجهًا، فبدت لي عيونهم، في هذا الجو المشوب بالدخان وتحت هذا النور الاصطناعي، مُحاطةً بهالة

رمادية مرَضية. تابعتُ الآنسة المُكلّفة بالخزينة وهي توزّع على الندل، بطريقةٍ آليّة، السكّرَ والملاعق مع كل قدح من القهوة. وفي شبه غفوة، وأنا نصف صاحٍ، لبثت أقرأ الإعلانات الخرقاء التي تغطّي الجدران، فمنحني ذلك النوعُ من الاسترخاء شيئًا من الغبطة والرّضى. ولكن فجأةً، انتُزعتُ من أحلامي اليَقِظة بأشد الطرق غرابة. غمرني انفعال عارم ونوع من الضيق يشبه بداية ألم أسنانٍ خفيف، لا نعرف بالضبط أهو مُتأتٍّ من جهةاليمين أو من جهة اليسار، من أعلى أم من أسفل. أحسستُ فقط بتشنّج صامت، وانشغال، إذ أدركت، دون أن أحزر السبب، أني جئت إلى هنا ذات مرّة، قبل سنوات وأنّ ذكرى مبهمة تربطني بهذه الجدران، وهذه الكراسيّ، وهذه المناضد، وهذه القاعة المثقلة بالدخان.

ولكن كلّما أجهدتُ نفسي في الإمساك بهذه الذكرى الغائمة، أمعنَتْ في التملّص والانزلاق منّي بمكر، ملتمعة بغير وضوح مثل قنديل بحر في أقصى أعماق وعيي، دون أن أبلغها أو أمسك بها. حاولتُ عبثًا تركيز نظري على كلّ الأشياء التي تحيط بي. صحيح أني لم أر من قَبْلُ تلك الخزينة التي ترنّ عند كل تسديد، ولا ذلك التلبيس الخشبي في شكل باليسّاندر[1] مستعار، لأن كل ذلك وُضع في وقت لاحق دون شكّ، ولكنّي أحسست أني جئت إلى هنا قبل عشرين عامًا أو أكثر وأنّ جزءًا من روحي في ذلك العهد بقي هنا مُحَبّأً لوقتٍ طويلٍ كمسمارٍ في الخَشبِ لا يُرى.

(1) Palissandre: خشب فاخر كثيف صلب، يقاوم الرطوبة والحشرات، وله عدة ألوان. أشهره باليسّاندر ريو البرازيلي.

بحثتْ حواسّي بقوة حولي وفي داخلي. ورغم ذلك - اللعنة! استعصى عليّ إدراكها، تلك الذكرى المتوارية، الغارقة في أعماقي.

كنتُ مغتاظًا، كما هي حالنا دائمًا حينما يؤكّد لنا «إخفاقٌ» ما، مرّة أخرى، ضُعْفَ طاقاتنا الذهنية ونُقصَها. بيد أني لم أتخلّ عن أمل استعادة تلك الذكرى، رغم كلّ شيء. كنت أعلم يقينًا، أنّي أحتاج فقط إلى شصٍّ دقيق أتصيّد به، فذاكرتي غريبة جدًّا، حسنة ورديئة في الوقت نفسه، نزويّة ومتمرّدة، ومع ذلك فهي وفيّةٌ بشكل لا يُصدَّق. إذ أنّها في الغالب تبتلع في أعماقها الأحداث والوجوه، وما تقرؤه وتعيشه في كلّ آونة، ولا تستعيد أيَّ شيء دون أن تُكْرَه على ذلك، وبأمر واحد أمليه عليها ملء إرادتي. ولكن يكفي أن أجد أدنى معلم أستدلّ به، بطاقة بريدية مصورة، أو بضع كلمات مكتوبة على ظرف صفحة جريدة مصفرّة، ليختلج الشيء المنسيّ في الحال -تحت الصفحة الغامضة- اختلاج سمكة علقت بطرَف صنارة، ثمّ يطفو مجسّدًا وملموسًا. عندئذ أستعيد خصوصية كلّ شخص، الفم، والسن الناقصة من جهة اليسار التي يكشف عنها حين يبتسم، والصوت المرتعش حين يضحك وكذلك ارتجاف الشارب في الوجه الجديد المنبثق في تلك الابتسامة. كل ذلك، ألمحه على الفور في رؤية مُكتملة، وبعد سنوات، أتذكّر كل كلمة قالها لي ذلك الشخص. ولكن يلزمني دائمًا، كي أمسك الماضي وأراه، استثارة حواسّي بحدثٍ ملموس وإن كان بالغ الصغر. أغمضت عينيّ مُركّزًا أفكاري، لأشكّل ذلك الشصّ السّحريّ من جديد. ولكن لا شيء! كل شيء نُسي وغُمر! سخطتُ كثيرًا على هذه الآلة المعطوبة، ذاكرتي النزقة، المُستقرّة بين

صدغيّ، حتى كدت أضرب جبيني، بالعنف نفسه الذي نهزّ به موزّعا آليًّا مُتهافتًا يأبى تسليمنا الشيء الذي لنا فيه الحقّ. لم يكن مُمكنًا أن أبقى جالسًا في هدوء وقتًا أطول، طالما أنّ ذاك العطب الداخلي يغيظني، ومن فرط انزعاجي قمتُ لأتحرّك قليلاً. ويا للغرابة! ما كدت أخطو بضع خطوات في المقهى حتى انبرى وميضٌ غسقيٌّ يبرق بداخلي ويلمع. على يمين الخزينة -الآن تذكّرت- ثمّة باب يُفضي إلى حجرة بلا نوافذ، مضاءة بنور اصطناعي. وكان الأمر كما قُلت: هناك فعلاً تلك الحجرة المنفصلة، تلك المُخصّصة للّعب. كانت مفروشة بطريقة تختلف عمّا مضى، إلاّ أنّها ظلّت محافظة على نفس الأبعاد؛ قاعة خلفية مستطيلة، ذات حدود مُلتبسة. وبكل تلقائيّة رحتُ أفتّش عن قطع الأثاث المُغايرة. ارتجّت أعصابي فرحًا، أحسستُ أني سأعرف كلّ شيء. طاولتا البلياردو تبسطان سُجّاديْهما الخضراوين مثل بركتين راكدتيْن صامتتيْن، وفي الأركان المناضد المُعدّة للّعب، وقد جلس إلى إحداها موظفان، أو مدرّسان، يلعبان الشطرنج. وفي زاوية، بمحاذاة جهاز التدفئة، عند مدخل غرفة الهاتف، تنتصب طاولة مربعة. فجأةً أحسستُ كأن برقًا اخترَقني من رأسي حتّى قدميّ، ذلك أنّي أدركتُ في لحظة، وبرجفة حارقة، ما بلبلني من فرط السعادة: إلهي! لقد كان هذا مكان ماندیل، بائع الكتب القديمة، جاكوب ماندیل! بعد عشرين عامًا، دخلتُ دون أن أدري إلى مقرّه الرئيس، مقهى غلوك، في أعلى شارع ألسرتراس. جاكوب ماندیل! كيف استطعت أن أنسى طوال هذه المدة، ذلك الرجل الخارق، الظاهرة العجيبة وفلتة زمانه، ذاك الكائن الخرافي الشهير في الجامعة

والمعروف لدى حلقة صغيرة من أناس يحترمونه كثيرًا، ذلك الساحر المهيب، بائع الكتب القديمة الذي كان يجلس هنا دونما انزعاج كلّ يوم من الصباح إلى المساء، ذاك الذي صنع مجد مقهى غلوك وشهرته!

حسبي أن أغمض عينيّ ثانية واحدة ناظرًا بداخلي ليظهر في الحال، مُضاءً بوضوحٍ على شاشة جفوني الورديّة. ظهر لي فورًا بلحمه وعظامه، ، في طاولته المربّعة ذات السّطح الرّخاميّ الرّماديّ القذر، وقد تكدّست عليها الكتب والأوراق. كان يتصدّر هذا المكان، ثابتًا لا يتزحزح، وعيناه المطوقتان بنظّارة مثبّتتان على أحد الكُتب ثباتَ نظرة المُنوَّم. كان يقرأ مُغمغمًا، مؤرجحًا بين الحين والحين جذعه ورأسه الأصلع الأدسم المحلوق بغير عناية، وهي عادة تعلّمها في المِدْرَاس، مدرسة الأطفال اليهود، في شرق أوروبا. في هذه الطاولة، وهنا فقط، كان يقرأ فهارسه وكتبه، كما تعلّم أن يقرأ في المِدْرَاس، وأن يدندن بصوت خافت ويتمايلَ مثل مَهْدٍ يتأرجح. لأن بني إسرائيل التقاة يعلمون أنّ ذلك الاهتزاز الهادئ للجسد اللامبالي، الشبيه بطفلٍ نام فهرب من العالم، يُسهّل بلوغ أذهانهم حالة النشوة المُمتعة. لم يكن جاكوب ماندیل يرى شيئًا أو يسمع صوتًا مما يجري حوله. كانوا يلعبون البلياردو، وكان المسجِّلون يروحون ويجيئون، والهاتف يرنّ، وأحدهم ينظف الأرضية أو يملأ الموقد... فيمرّ كلّ ذلك دون أن يُرى. ذاتَ يوم، وقعت من المِدفأة جمرةٌ حامية أشعلت النار في الأرضية حذوه، وإذْ بدأ الدخان يتصاعد تنبّه أحد الزبائن للرائحة الخانقة فسارع يطفئ النار المندلعة. أمّا جاكوب ماندیل فلم يلاحظ شيئًا من ذلك والحال أنه كان على بعد خطوتين، مُحاطًا بالدخان.

لقد كان يقرأ مثل شخص يتهجّد، أو لاعبين شغوفين بمباراتهم، أو سكارى يتبعون فكرة ثابتة؛ رأيته مرة يقرأ في خشوع بلغ من الكمال ما جعل طريقة الآخرين في القراءة تبدو لي منذ ذلك التاريخ طريقة دنسة. كان بائع الكتب القديمة المسكين جاكوب ماندیل أصيل غاليسيا[1]، دون أدنى شك، قد كشف لأول مرة للطالب الشاب آنذاك، وهو أنا، عن سرّه الأكبر، أي التركيز التام اللائق بالفنان وبالعالِم، وبالحكيمِ الحقّ وبالمجنون الكامل، فتلك التراجيديا الناجمة عن السعادة والبؤس معًا، هي ما يجعل الإنسان ممسوسًا.

كان قد عرّفني به رفيق لي يكبرني قليلاً. ففي تلك الفترة، كنت أُجري بحوثًا حول ميسمر[2]، وهو طبيب ومنوّم مغناطيسي لم يكن معترَفًا به كثيرًا في مدرسة بَراسيلس[3]. وقد وجدتُ صعوبة في تحصيل المراجع، إذ كانت مُصنّفات المتخصصين غير كافية بالمرة. وحتّى أمين المكتبة الذي قصدته في ثقة ساذجة أجابني بنبرة خشنة أن تقديم المصادر الببليوغرافية ليس من شأنه. عندئذ ذكر لي رفيقي اسم ماندیل لأوّل مرة، فقال بما يُشبه الوعد: «سأرافقك إليه، هو يعرف كلّ شيء وسيوفّر لك كلّ ما تُريد. سيعثر لك على أكثر الكتب ندرة، تلك المُغيّبة في أعتم متاجر باعة الكتب الألمان. ففي هذا المجال هو الرجل الأكثر اطّلاعًا في فيينا كلّها. زد على ذلك أنه رجل طريف، آخر سلالة باعة الكتب القديمة قبل الطوفان».

---

(1) Galicie: منطقة تاريخية مقسمة بين بولندا وأوكرانيا.

(2) Franz Anton Mesmer : طبيب ألماني اختلف الناس حوله (1734-1815).

(3) Paracelse: من أشهر الأطباء عبر التاريخ، ولد في سويسرا عام 1493 وتوفّي في سالزبورغ بالنمسا عام 1541.

ذهبنا معًا إلى مقهى غلوك. هناك، كان هذا المُسمّى ماندیل يجلس مُرتديًا الأسود، والأنف مُدجّج بنظّارة، والوجه أشعث، وهو يقرأ متمايلاً، مثل شُجيْرات في مهبّ الريح. دنونا منه فلم ينتبه إلينا. لبث جالسًا، يقرأ، وجذعه يتمايل كجذع راهب بوذيّ. وفوق الطاولة خلفه، معطفه الأسود البالي معلّق في مشجب متخلخل، وجيوبه تغصّ بالجذاذات والمجلات. ولكن ماندیل، ونظارته السميكة مُلتصقة بكتابه، لم يلاحظ شيئًا. في النهاية ضرب رفيقي الطاولة بيده، بالقوّة نفسها التي نطرُق بها بابًا. عندئذ أقام ماندیل جذعه، وبحركةٍ آلية رفع نظارته المعدنيّة الثقيلة إلى جبينه. وتحت حاجبيه الكثّيْن اللّذيْن خطّهما الشيب حدّقت فينا عينان غريبتان، عينان صغيرتان متوقّدتان، سوداوان ومُتأهّبتان، متحرّكتان ومدبّبتان كلسان أفعى. قدّمني صديقي إليه فشرحت غاية زيارتي، دون أن أنسى الإعراب عن سخطي -بغضب مفتعل- على أمين المكتبة الذي أبى أن يرشدني، وهي حيلة أوصاني بها صديقي وألحّ عليها. اتكأ ماندیل على ظهر كرسيّه، وبتؤدة، بصق. ثم ضحك ضحكة مقتضبة وأجابني بلهجة الشرق ورطانتها الحادة: «أبى؟ دعك من هذا! بل قل إنه عجز. إنه بغل، حمار من الفصيلة الجيدة، بشعره الرمادي! قسَمًا إنّي أعرفه، منذ أكثر من عشرين عامًا. ولكنّه طوال هذا الوقت، لم يتعلّم شيئًا. كل ما يحسنونه هو وأمثاله، تسلُّمُ رواتبهم! خير لأولئك السادة الدكاترة أن يدفعوا نقّالة من أن يهتمّوا بالكتب!»

بفضل تلك الحركة البليغة زال الحاجز بيننا، ودعاني لأول مرّة إلى هذه الطاولة المرمرية المربّعة، الملطخة بملاحظات صغيرة. وفي

هذا الهيكل الغريب للكشوفات الببليوغرافية التي لا أزال أجهلها لم ألبث أن عرضت عليه رغباتي: كنت أبحثُ عن كتب قديمة موضوعها المغناطيسية، وكذلك عن مصنّفات حديثة ومقالات مؤيّدة لميسمر أو مُعارضة له. وما كدت أنهي كلامي حتى غمز ماندیل بعينه اليسرى لمدة ثانية، مثل رام يصوّب سلاحه نحو مرمى. لم يدم وضع الانتباه المركز ذاك حقًّا أكثر من ثانية. وكما لو أنّه يقرأ من فهرس خفيّ، ذكر لي في سرعة البرق دستتين أو ثلاثًا من المصنّفات، مع تحديد مكان النشر وتاريخه لكل مصنَّف، فضلاً عن ثمنه التقريبي. أخذتني الدهشة، إذ لم أكن أتوقّع شيئًا مماثلاً رغم أني أُنذِرْت. ويبدو أنّ اندهاشي لم يعجبه، إذ لم يلبث أن جعل يلهو بلوحة مفاتيح ذاكرته مُعدّدًا التنويعات الببليوغرافية الأكثر غرابة، في الغرض الذي ذكرته له. ثمّ سألني ما إذا كنت أرغب أيضا في التعرّف إلى السرنميين[1]، وبدايات التنويم، وغاسنر[2]، والرقية، والعلم المسيحي[3] ومدام بلافاتسكي[4]... وعادت الأسماء والعناوين والأوصاف تطنطن من جديد. وعندها فحسب فهمت أمام أيّ ذاكرة عبقرية ألفيْتُ نفسي: لقد كان هذا المُسمّى جاكوب ماندیل موسوعة حقيقية، بل فهرسًا كونيًّا جوّالاً. لبثت أتطلع، مفتونًا، إلى تلك الأعجوبة الببليوغرافية الساكنة في شخصٍ بسيط ، قذرٍ بعض الشّيء، ذاك الغاليسي، بائع

(1) أي الذين درسوا ظاهرة المسرنمين أو نظّروا لها.

(2) Johann Joseph Gassner: رقّاء نمساوي شهير (1727-1779).

(3) Christian Science: أو علم المسيح وهو من ابتكار الأمريكية ماري بيكر إدي التي زعمت أنها اكتشفت عام 1866 القوانين التي طبقها عيسى في علاج المرضى.

(4) Mme Blavatsky أو Helena Blavatsky: أمريكية من أصل روسي (1831-1891) من مؤسسي المجمع التيوصوفي، والتيوصوفية هي نظرية دينية موضوعها الاتحاد بالرب.

الكتب القديمة. وبعد أن ذكّر في عجلةٍ واسترسالٍ نحو ثمانين عنوانًا وكأنّ شيئًا لم يكن، وهو راضٍ على ما أظهره من معرفة، شرع في هدوءٍ ينظّف نظارته بمنديل ربما كان في يوم ما أبيضَ اللّون. وفي مُحاولة لإخفاء استغرابي قليلًا، سألتُ في استحياء عن عناوين الكتب التي يمكن أن يوفّرها لي. «هِمم! سنرى ماذا يمكن أن نفعل»، قال مغمغمًا، ثمّ أضاف «عُد غدًا سيجد لك ماندِيل البعض منها وما لا يوجد هنا، سنعثر عليه في مكان آخر. عندما تكون لنا حاسة شمّ، يكون لنا أيضًا نصيب من الحظ.» شكرته بلباقة، ولكنّي سرعان ما اقترفت خطأً شنيعًا، إذ اقترحت عليه -بنيّة المُساعدة- أن أكتب له على ورقةٍ بسيطة عناوينَ الكتب التي أرغب فيها. لكزني صديقي بمرفقه، ولكن بعد فوات الأوان! كان ماندِيل قد رماني بنظرة -ويا لها من نظرة!- ظافرة، مُستاءة، ساخرة ومُتعالية في الوقت ذاته، نظرة ملكيّة بأتم معنى الكلمة، كتلك التي أرسلها ماكبث شكسبير إلى مكدوف حين دعا ذلك البطل الأشوس إلى الاستسلام دون قتال. ثم ندّت عنه مرة أخرى ضحكة مقتضبة، وتحركت جوزة حلقه بشكل غريب كأنما ابتلع كلمة بذيئة. كان من حقه أن يقذفني بأقذع الشتائم، بائع الكتب القديمة الطيب ذاك، الخدوم ماندِيل. لن يجرُؤ سوى غريب «أمهوريز» كما يقول، أو شخص لا يعرفه، على أن يقترح بكلّ صفاقة عليه هو، جاكوب ماندِيل، تسجيل عنوان كتاب على غرار مساعدي الكتبيّين أو موظفي المكتبات، كأن ذلك الدماغ الذي لا مثيل له، الصافي كالجوهر، يستعين بمثل تلك الوسائل المقيتة! فيما بعد فحسب، فهمت إلى أي حدّ أهنتُ عبقريَّ الذاكرة

النادر ذاك. فقد كان ذلك اليهودي الغاليسي الصغير، الضامر، الأشعث والدميم الخلقة، ذا ذاكرة جبّارة. فخلف جبينه الشاحب القذر، كما لو أنه مغطّى برغوة رمادية، نُقش كما يُنقش على البرونز، بيدٍ شبحيّةٍ خفيّة، كلّ اسم وكلّ عنوان مطبوع على الصفحة الأولى لكتاب. وسواء صدر الكتابُ أمس أو قبل مائتي عام، بوسعه أن يذكر، دون تردد، اسم مؤلفه، ومكان الإصدار، وثمنه جديدًا ومستعملاً؛ يتذكّرُ كلّ الكتب بوضوحٍ عجيبٍ: التسفيرَ والرسومَ والنسخَ المطابقة للأصل المدرجةَ في المَلحقات. وعن جميع الكتب، سواء التي أمسكها بيده أو التي رآها عن بعد في واجهة أو في مكتبة، كان يملك رؤية صافية، كرؤية فنّان يتأمّل في ذهنه عملاً لم يظهر بعد للناس، وهو يتأهب لإبداعه. فإذا كان الكتاب مثلاً معروضًا للبيع بستّة ماركات في فهرس تاجر من براتيسبون، يتذكّر في الحين أنّ نسخة من ذلك المُصنّف بيعت في المزاد العلني بفيينا، قبل عامين، بأربع كرونات، وأنه يعرف اسم الشاري. في الحقيقة، ليس لجاكوب ماندیل أن ينسى عنوانًا ولا تاريخًا أبدًا. كان يعرف كلّ نجم، وكلّ نبتة، وكلّ نقاعيّة[1] في كون الببليوغرافيا المتحرك والمتبدل. وفي أي مجال، كان له باع أطول من سائر المتخصصين. يعرف المكتبات أفضل من أصحابها؛ ويعرف عن ظهر قلب مخزونات التجار الكبار أفضل من هواة المجموعات المزوّدين بقوائم ومذكّرات. مع أنه لا يملك شيئًا عدا سحر التذكّر الذي لا يُضاهَى، لتلك الذاكرة التي لا يمكن الإحاطة بها إلاّ بعد أكثر من مائة تجربة مختلفة. وما كان بطبيعة الحال

(1) حيوان مجهري ذو خلية واحدة يعيش في السوائل وفي نقاعات المادة العضوية.

لتلك الذاكرة العجيبة أن تتكون وتبلغ الكمال على نحو خارق إلاّ بفضل السر الأزلي لكل عمل مُتقَن: التركيز. خارج الكتب، كان هذا الرجل الغريب يجهل العالم. ذلك أنّ تجلّيات الحياة لا تغدو ملموسةً لديه إلاّ حينما تتحوّل إلى حروف مطبوعة في وُرَيْقات كتاب. ولكنّ تلك الكتب في حدّ ذاتها لم يكن يعنيه من قراءتها لا معناها ولا فحواها، فكريًّا كان أم طريفًا. كلّ ما كان يحظى باهتمامه هو العناوين واسم المؤلف واسم الناشر والثمن. كانت الذاكرة التي تركّزت عند ماندیل على الكتب القديمة ذاكرة سلبية، غير منتجة بالمرة، فما هي إلاّ فهرس يحتوي على آلاف المداخل، من عناوين وأسماء، مطبوعة على كورتيكس[1] حيوان ثديي بدل أن تكون مطبوعة، كما جرت العادة، على صفحات كتالوغ.

ولكنها، في كمالها الفريد، تضارع تذكّر نابليون لسيماء البشر، وميزوفانتي[2] للّغات، ولاسكر[3] للشطرنج، وبوزوني[4] للموسيقى. لو قُدّر لهذا العقل أن يحاضر في منتدى أو في درس عام، لأفاد الآلاف وفاجأهم، بل مئات الآلاف من الطلبة والعلماء، ولأثرى العلم، ولو وُضع في تلك الكنوز العامة المسماة مكتبات، لقدّم خدمات لا تقدّر بثمن. ولكن ذلك العالم الأعلى كان متمنّعًا على

---

(1) قشرة الدماغ.

(2) Giuseppe Caspar Mezzofanti: رجل دين وجامعي إيطالي ملمّ بأغلب لغات العالم، لم تستعص عليه غير الصينية. درّس العربية بجامعة بولونيا الإيطالية، ولد سنة 1774 وتوفي سنة 1849.

(3) Emanuel Lasker: عالم رياضيات ألماني، وبطل العالم في الشطرنج. (1868-1941).

(4) Ferruccio Busoni: ملحن وعازف بيانو وقائد فرقة إيطالي، ولد في إمبولي عام 1866 وتوفي في برلين عام 1924.

بائع كتب مسكين من غاليسيا، لا حظّ له من العلم غير ما ناله أثناء تردّده على مدرسة تلمودية. وهكذا فإن تلك المواهب العجيبة لم تكن تتجلى إلاّ سرًّا أمام طاولة المرمر بمقهى غلوك. ولو صادف في يوم ما أن حاول عالم نفساني (إذ أن ذلك المجال لا يزال بعيدًا عن معارفنا) تمييز مختلف أشكال الذاكرة وتصنيفها حسب الأنواع والفروق-على غرار ما فعله بوفون[1] مع الحيوانات بصبر وإصرار- فلا بدّ له من أن يفكّر في جاكوب ماندیل، سيّد القوة السحرية التي نسميها ذاكرة، عبقري الأسعار والعناوين، وأمير البيليوغرافيا المجهول.

لم يكن جاكوب ماندیل، إذا وضعنا في الحسبان مهنته، ونظرة الّذين لا دراية لهم بالكتب، سوى تاجر كتب صغير. وكلّ يوم أحد، كان يظهر على صفحات «الصحافة الحرة الجديدة[2]» وفي «أخبار فيينا اليومية[3]» هذا الإعلان النمطيّ: «أشتري كتبا قديمة. أثمان جيدة. الرفع فوريًّا من محلّ الإقامة. ماندیل، شارع ألسر الأعلى.» يلي ذلك رقم هاتف هو في الواقع رقم مقهى غلوك. كان ماندیل يُنقّب في جميع مخزونات الكتب. وكلّ أسبوع، يحمل غنيمته إلى مقرّه الرئيس بمساعدة حمّال عجوز ذي لحية إمبراطورية[4] ثمّ يتخلّص منها، لأنه لا يملك رخصة. ولذلك ظل مُجرّد تاجر سقَطٍ بسيط، لا يكسب سوى أرباح ضحلة. كان الطلبة يبيعونه كتبهم المدرسية.

---

(1) Comte de Buffon: فيلسوف وكاتب وعالم بيولوجيا وكوسمولوجيا ورياضيات وعلوم طبيعية فرنسي، (1707-1788).

(2) Neue Freie Presse: صحيفة نمساوية.

(3) Neues Wiener Tagblatt: صحيفة نمساوية.

(4) لحية صغيرة نامية تحت الشفة السفلى.

وبواسطته تمرّ تلك الكتب إلى الدفعة الموالية؛ وكان فوق ذلك يوفّر لهم أيَّ كتابٍ مُستعمل بسعر رمزي. فيحصّلون بفضله المعلومة التي يُريدون بثمن زهيد. لم يكن للمال دور كبير في حياته. فهو لا يكاد يُرى في غير السترة البالية نفسها؛ ولا ينفكّ يشرب صباحًا وأصيلاً ومساءً كوب الحليب المُرفق برغيفين صغيرين من الخبز الطريّ، أمّا عند الزوال فيأكل أي طعامٍ يجيئونه به من المطعم المقابل. هو أيضًا لا يدخّن، ولا يقامر، بل يمكن القول إنه لا يعيش. عيناه فحسب كانتا تعيشان خلف زجاجهما البيضوي ولا تنفكّان تُغذّيان بالكلمات والعناوين والأسماء مادته الشحماء الغامضة والخصبة. ومن ثمّة كانت تلك الكتلة الرخوة الولود تلتهم بشراهة الغذاء الوفير المُقدّم لها، كما يمتصّ السهل ملايين القطرات من المطر. لم يكن يهتمّ للبشر، ومن بين جميع الطباع البشرية، الطبع الوحيد الذي كان له منه نصيب -والحقّ أنّه الأكثر إنسانيّة- هو الخيلاء. فإذا ما أتاه أحدُهم طالبًا معلومةً أضناه البحث عنها في مائة مكان مختلف دون جدوى، وقدّمها هو له من أوّل وهلة، شعُر على الفور برضى عميق، كهبّة هواء مُنعشة؛ ولعلّه فخور أيضًا بأنّ عشَراتٍ من الناس في فيينّا وسواها يقدّرون علمه ويلتمسونه. ففي كل تجمّع من تلك التجمعات الفظّة التي يسكنها ملايينُ البشر، ونُسمّيها مُدُنًا، توجد دائمًا، في بعض المواقع، أوجهٌ صغيرة تعكس عالمـًا بأسره في نطاقٍ بالغِ الصِّغَر، غير مرئيّة في الغالب، وثمينة في نظر العارفين وحدهم. ومثلما كان الناس يقصدون أوزيبيوس مانديشفسكي في

مجمع أصدقاء الموسيقى[1] ليعرفوا رأيه في توليفة موسيقية: كان هو أيضًا يُقصدُ فيحلّ -وهو جالس في أدب، مُعتمرًا قلنسوته الصغيرة المقرّنة ومنهمكًا في وثائقه أو توليفاته- أعوص المشاكل بمجرد أن يرفع عينيه نحوك والبسمة تُعمّر وجهه. وها إنّنا اليوم أيضًا، عندما نرغب في معلومات عن المسرح وثقافة التقاليد الفيينيّة، لا نتردد في التوجه إلى العجوز غلوسّي الذي يعرف كل شيء. بمثل تلك الهمّة والثقة كان بعض المحافظين من هواة الكتب النفيسة والقديمة في فيينا يحجّون إلى مقهى غلوك للقاء جاكوب ماندیل كُلّما استعصى عليهم أمر. وكان حضور تلك اللقاءات بالنسبة إليّ، أنا الطالب الشاب المسكون بنهم الاطلاع، متعةً حقيقيّة.

عندما يُقدَّم لماندیل كتابٌ ضئيلُ القيمة، يُغلقه بعنفٍ وهو يغمغم في اشمئزاز: «كرونتان»، أمّا أمام كتاب فريد ونادر، فإنّه يتراجع باحترام ثمّ يضعه على ورقة بيضاء -احتياطًا- مُبديًا خجله من أصابعه القذرة ذات الأظفار السوداء المُلطّخة بالحبر. قبل أن يشرع في توريق الكتاب صفحة صفحة، وقد غمره ورع حقيقي. وفي تلك اللحظة لا يُمكن لأحدٍ أن يُزعجه، كما لا يمكن إزعاج مؤمن أثناء أداء صلاته؛ ذلك أنّ طريقته في تأمل الكتاب ولمسه وشمّه ووزنه تشبه، من حيث الحركات، طقوسًا مُقدّسة ثابتة لاحتفال دينيّ. كان ظهره المقوّس يتمايل وهو يُهمهم في ما يُشبه

---

(1) Eusebius Mandyczevski: موسيقار نمساوي من أصول أوكرانية، (1857-1929). أدار مكتبة مجمَع أصدقاء الموسيقى Gesellschaft der Musikfreunde وأرشيفها، ثم قاد فرقتها السيمفونية.

الهمس، ويهرش رأسه ويطلق صيحات غريبة، تارة «آه!» ممطوطة مشوبة بشيء من الفزع، وطورًا «أوه!» معجبة وَلْهانة، وأحيانًا «وا!» أو «واويه!» سريعة مذعورة، إذا لاحظ غياب صفحة أو اكتشف أنّ ورقةً نخرها الدود. وفي الختام، يَرجَح جِلدَ الكتاب بيده في ورع، يتشمّمه، مغمض العينين تقريبًا، ويتنشّق رائحة مقطع الربع[1]، سعيدًا مثل فتاة عاشقة مأخوذة بزهرة مسك روميّ[2]. خلال هذه العملية البطيئة والمعقدة، ينبغي أن يتحلى صاحب الكتاب بالصبر. ولكن بعد هذا الامتحان، يقدّم ماناديل كل المعلومات برحابة صدر، بل بحماس؛ ولا ينسى أن يُشفع ذلك بنكت لاذعة وحكايات طريفة عن السعر الذي بلغته نسخ مماثلة. في تلك الحالات، يستعيد شبابه وحيويّته. أمّا الشيء الوحيد الذي يُمكن أن يخرجه عن طوره: فهو أن يعرض عليه أحد الأغرار مكافأة نظير تقرير خبرته. عندئذ يرتدّ مُستاءً استياءَ أمينِ مُتحفٍ يحاول أمريكيٌّ عابرٌ أن يدسّ في يده بقشيشًا. فتصفُّحُ كتابٍ نادر يعني في نظر ماناديل وأنظار آخرين لقاءً عاطفيًّا، وتلك اللحظات عنده أشبه بليالي حبّ أفلاطوني. إذ لا شيء غير الكتب له عليه سلطان أمّا المال فلا يهمّه البتّة. وعبثًا حاول هواةُ جمعِ الكتب الكبار، ومن بينهم مؤسس جامعة برنستون، أن يتخذوه مستشارا أو مُقتنيًا، إذ كان جاكوب ماناديل يرفض في كلّ مرّة. لا يمكن أن نتخيله في مكان آخر غير مقهى غلوك. كان ضامرَ القامة، نحيلاً، يغطي ذقنه زغب خفيف، وشَعرُه مُلْتوٍ على

(1) In-quarto: الورقة المطبوعة حين تطوى إلى أربع ورقات وثماني صفحات.

(2) نبتة من فصيلة النرجسيات يستخرج من زهرها عطر فاخر.

جبينه في شكل لوالب كأداةٍ فتح القِنان. لقد هجَر جهته الريفيّة في الشرق منذ ثلاثة وثلاثين عامًا وجاء ليدرس في فيينا كي يصبح حاخامًا. ولكنه ما لبث أن ترك يهوه، الربَّ الواحد المرعب، وتبنّى شِرْكَ الكتبِ الممتعَ. استقر بمقهى غلوك، وشيئًا فشيئًا أصبح مكتب بريده، ومقرّه الرئيس، وعالمه. وبالطريقة نفسها التي يتأمّل بها عالم الفلك المتفرّد في مرصده، عبر فتحة المنظار الدقيقة، عددًا لا يحصى من النجوم، ويدرس كل ليلة تنقلاتها الملغزة، وتغير مواقعها الدائم، وبريقها المتنامي حينًا، والشاحب حينًا آخر، كان جاكوب مانديل يجلس إلى طاولته المربعة بمقهى غلوك يتفحص بنظارته عالمـًا آخر متحرّكًا ومتحوّلاً، عالمـًا يفوق عالمنا، هو عالم الكتب.

كان يحظى طبعًا باحترامٍ كبيرٍ في مقهى غلوك، الذي تعود شهرته إلى كرسي الأستاذية غير المرئي لبائع الكتب القديمة أكثر ممّا تعود إلى اسم الموسيقار العبقري كريستوف فيليبالد غلوك(1)، مبدع «ألسيست»(2) و«إيفيجيني»(3). كان مانديل جزءًا من الأثاث تمامًا كالمنضدة المصنوعة من خشب كرز الطير، وسُجّادتيْ البلياردو المرقّعتين والمصفاة النحاسية. بل لقد كانت طاولته محروسةً مثل معبد، ذلك أنّ زبائنه الكثر ومساعديه كانوا عادة ما يُدعَون بلطف إلى استهلاك شيء ما، ما يجعل أهمّ مكسب يجنيه من عمله يذهب

---

(1) Christophe Willibald Gluck: موسيقار ألماني متخصص في الأوبرا ولد في إيراسباغ بألمانيا سنة 1714 وتوفي في فيينا سنة 1787.

(2) أو ألكيستيس في الميثولوجيا الإغريقية. هي هنا عنوان أوبرا.

(3) أو إيفياناسا كما ورد ذكرها في إلياذة هوميروس، هي ابنة أغامنون. وهي هنا عنوان دراما غنائية.

مباشرة إلى كيس الجلد العريض لرئيس الندل دوبلر. وفي المقابل، كان ماندیل يتمتّع بعدّة امتيازات. منها استعماله للهاتف مجانا، وحفظ الندل لبريده وتأديتهم طلباته؛ حتّى أنّ العجوز الطيبة المكلفة بدورة المياه كانت تفرك معطفه بالفرشاة، وتخيط أزراره، وفي كل أسبوع تحمل كيس غسيله الصغيرَ إلى المغسلة. وكان فوق ذلك الوحيد الذي يحقّ له أن يجلب أكله من المطعم المجاور؛ وفي كل أسبوع يقبلُ صاحب المحل، السيد ستندارتنر شخصيًّا، إلى طاولته ليحيّيه. (والحقّ أنّ ماندیل، جرّاء غرقه الدائم في كتبه، نادرًا ما كان يجيب). كان يدخل المقهى في السابعة والنصف تحديدًا، ولا يغادره إلى حينما تُطفَأ الأضواء. لا يكلّم الزبائن الآخرين البتّة، ولا يقرأ الصحف مُطلقًا، ولا يلحظ أي تغيير حوله؛ حتّى أنّه عندما سأله السيد ستندارتنر ذات مرة بأدب عمّا إذا كانت ظروف قراءته قد تحسّنت بعد أن عوّضت المصابيح الكهربائية قناديل «آور» ذات الأنوار المترنحة، رفع رأسه إليها مُتفاجئًا، فرغم الضجيج وضربات المطارق لأعمال تركيب دامت عدّة أيام، لم يتفطن لأي شيء. فمن خلال حلقتي نظارته فحسب، من خلال تينك العدستين اللامعتين المتشربتين، كانت مليارات النقاعيات السوداء لأحرف الطباعة تتسرب إلى دماغه؛ أمّا البقيّة الباقية فكانت تمرّ بجانبه، مثل دويّ عابر. وهذا يعني أنّه عاش أكثر من ثلاثين عاما هنا، في هذه الطّاولة، للقراءة فحسب، والمقارنة، والحساب دون هوادة، كما في حُلمٍ يُعاد لا يقطعه غير النّعاس.

لذلك اعتراني نوع من الذعر حين رأيت طاولة المرمر تلمع في

العتمة، عارية كلحد، تلك الطاولة التي كان جاكوب ماندیل یبث منها تعالیمه. الآن فقط، وقد تقدمتُ في السن، أدركُ معنى غياب رجل كهذا. أوّلاً لأنّ الظواهر من هذا النوع تزداد نُدرةً يومًا بعد يوم في عالمنا الذي تنمّطَ بغير رجعة. ثانيًا لأني، حين كنتُ شابًّا، تعاطفتُ تعاطفًا عظيمًا، بحدسٍ عميق مع جاكوب ماندیل هذا. وبفضله، اقتربت لأول مرة من لغز كبير: في الحياة، كل إبداعاتنا الجادة وذات القيمة هي ثمرةُ التركيز، ثمرةُ هَوَسٍ أحاديّ سامٍ يشدُّه رابطٌ مقدّسٌ إلى الجنون. لقد كان تاجر الكتب الصغير والمجهول تمامًا ذاك أفضلَ من شعرائنا المعاصرين، ما أثبت لي وأنا شابّ، أن الحياة الروحيّة الصافية، وعبادة الفكرة الواحدة، والتأمل العميق كتأمل يوغاني[1] هندوسيّ أو راهب من العصر الوسيط داخل زنزانته، يمكن أن تتحقّق في يومنا هذا، حتى بجانب غرفة هاتف وتحت أضواء مصابيح كهربائية لمقهى. ومع ذلك، كان يمكن أن أنسى هذا الرجل! صحيح أن الحرب قامت وأني انشغلت بنصوصي انشغالاً يُشبه انشغاله. ولكني أمام تلك الطاولة الفارغة كنت أشعر بنوعٍ من الخجل تجاهه، مشفوع برغبة شرهة في المعرفة.

ولكن إلامَ آل أمره؟ وأين يمكن أن يوجد؟ ناديتُ النادل وسألته. فأجابني آسفًا: «كلاّ» هو لا يعرف السيد ماندیل، ولا أحدَ بهذا الاسم يتردد على المقهى. ولكن لعل رئيس الندل يعرفه. أقبل الرجل مُقدّمًا بطنه ليوحي بأهميته، ثمّ تردّد، وفكّر وقال: كلاّ، هو أيضًا لا يعرف شخصًا باسم ماندیل، إلاّ إذا كان المقصود بالسيد

(1) زاهد هنديّ يمارس اليوغا.

مانديل ذلك الذي يُتاجر في الخُردة بفلوريانيغاس! انطبع على شفتيّ طعمٌ مُرّ، طعمُ تفاهةِ الحياة البشرية. ما جدوى العيش إذا كانت الريح ستذري خلف أقدامنا آخرَ أثرٍ لمرورنا؟ على مدى أكثر من ثلاثين عامًا، وربما أربعين، ثمّة رجل قد تنفّس هنا، قرأ وفكّر في هذه الأمتار المربّعة القليلة، ثم حلّت ثلاثةُ أعوامٍ أو أربعة، جاء فيها فرعون جديد آخر فكانت كافية لمحو جاكوب مانديل من الذاكرة. حتّى صاروا في مقهى غلوك يجهلون اسم جاكوب مانديل، مانديل بائع الكتب القديمة! وفي شبه غيظ، سألت رئيس الندل هل يمكن التحدث إلى السيد ستندارتنر، أو إلى أي واحد من العمال القدامى في المحل. فأجاب: «أوه! السيد ستندارتنر... يا إلهي... لقد باع المقهى منذ مدة، ثمّ مات. أما رئيس الخدم الأسبق فقد انسحب إلى ملكية صغيرة قرب كريمس. لا، لم يعد ثمة شخص يمكن الاتصال به! بلى، ما تزال هنا السيدة سبورشيل، سيّدة دورة المياه... «مدام شوكولاطة» كما نناديها بفجاجة، ولكنها قطعًا لا تتذكّر كل الزبائن القدامى». فقلتُ من فوري «لا يمكن أن ننسى جاكوب مانديل»، ودعوتها إلى الحضور.

خرجت السيدة سبورشيل من قبوها السفلي بصعوبة، كان شعرها الأبيض مُنتفشًا، وكانت تفرك يديها الحمراوين النديّتيْن بخرقة، وقد بدا عليها أنها مصابة بمرض الاستسقاء. لعلها كانت بصدد غسل كهفها المظلم أو بصدد تنظيف النوافذ. أدركتُ من هيئتها غير الواثقة، أنّها لم ترتح لدعوتها إلى الناحية الراقية من المقهى. فمن عادة الناس البسطاء في فيينا إذا رغب أحد في استجوابهم أن

يذهب بهم الظن إلى البوليس السرّي. لذلك نظرَتْ إليّ بارتيابٍ من أعلى إلى أسفل، بعين حذِرة مُتكتّمة. لم تكن تتوقّع ما يسرّ. ولكن ما إن سألتها عن جاكوب ماندیل، حتى أقامت جذعها فجأةً ورمتني بنظرة مضيئة، بل ومشرقة. «يا إلهي! السيد ماندیل المسكين! من يُصدّق أنّ هناك من ظَلّ يفكر فيه! نعم، ذلك السيد ماندیل المسكين!» كادت تبكي من شدّة التأثّر، على غرار كبار السن حين نذكّرهم بشبابهم وبالأوقات الجميلة التي عاشوها. سألتها هل ما زال على قيد الحياة، فقالت: «يا إلهي! السيد ماندیل المسكين! مضت الآن خمسة أعوام أو ستّة منذ أن توفّي، بل هي سبعة! كان من طينة طيّبة! عندما أتذكّر أنني عرفته منذ مدة طويلة -أكثر من خمسٍ وعشرين سنة- وأنّه كان هنا حين التحقتُ بهذا المحلّ أشعر بالخزي لتركهم إيّاه يموت تلك الميتة.» دبّ فيها النشاط أكثر فأكثر، وسألتني ما إذا كنت من أقاربه. إذ لا أحد انزعج لغيابه أو سأل عنه، ثم استفسرت هل كنت أدري ما جرى له أم لا؟

- كلا، لا أدري؛ أكّدت لها، ورجوتها أن تحكي لي كل شيء. فواصلت تلك المرأة الطيبة، في حياءٍ حرج، وهي تمسح يديها النديتيْن بين الحين والحين. ولقد فهمت أنها لا تحتمل البقاء هنا، واقفة وسط المقهى، بفوطتها القذرة وشعرها المنفوش؛ إذ كانت لا تنفك تلتفت يمينة ويسرة، بقلق، لتتأكّد أن لا أحد من الندل يستمع إليها. فاقترحتُ عليها أن أرافقها إلى قاعة اللعب، عند المكان الذي كان يشغله ماندیل، لتحكي لي كل شيء هناك. وافقت بامتنان، وقد سَرّها تفهمي، وسبقتني؛ سرتُ وراء تلك المرأة العجوز ذات الخطى

المترنّحة قليلاً. وتابعَنا النادلان بنظريْهما مُتفاجئيْن وقد حدسا بعض التواطؤ بيننا، فيما استغرب الزبائن رؤية هذا الثنائي غير المتناسق. وعندما جلسنا إلى الطاولة، قصّت عليّ (ثمّ عرفت لاحقا معلومات أخرى تكمل حكايتها) النهاية الحزينة لجاكوب ماندیل، بائع الكتب القديمة قائلة:

«إليك ما حصل: في بداية الحرب، وحتى بعدها، ظلّ يأتي كل يوم، في الساعة السابعة والنصف صباحا، فيجلس هنا بالضبط، إلى هذه الطاولة، وينهمك كعادته في دراساته كامل النهار، حتّى تحصّل لدينا انطباع، رحنا نتهامس به في ما بيننا، مفاده أنه ليس له أيّ علم بقيام الحرب. كنت أعرف، طبعًا، أنه لا يتصفح الجرائد مُطلقًا، ولا يكلّم أحدًا. وحتى حين يُحدِث الباعة ضجّةً رهيبةً رافعين عقيرتهم بنشراتهم الخاصة، ويهبّ إليهم الآخرون جميعًا، لم يكن ينهض، أو يُعير ذلك انتباهه. هو حتّى لم يلاحظ أن فرانز، مسجّل النقاط، لم يعد هنا -ذلك أنّه سقط قرب غورليتس- ولم يدر أن ابن السيد ستندارتنر سُجن في برزميسل. ولم يُبدِ أدنى تذمّر عندما بدأ الخبز يسوء يوما بعد يوم، وعندما سُقي مشروبَ تين رديئًا بدل حليبه اليومي. مرة واحدة، أعرب عن استغرابه، وكان ذلك بخصوص تناقص عدد الطلبة الذين يزورونه؛ يا إلهي! المسكين، لم يكن ثمة ما يُمتعه أو يشغله غير كتبه. ثمّ جاء يومٌ حلّت فيه المأساة. في الساعة الحادية عشرة صباحًا، أي في وضح النهار، حين دخل دركيّ وعون من البوليس السريّ استظهر بشعاره من على ثنية سترته، وسألا هل يتردد شخص يدعى جاكوب ماندیل على هذا المكان فاقتيدا إلى طاولة

بائع الكتب القديمة؛ ظنّ بسذاجة أنّهما يريدان أن يبيعاه كُتبًا أو يطلبا منه معلومةً. إلا أنهما أمراه بأن ينهض ويُرافقهما. وكان ذلك عارًا على المقهى: تحلّق الزبائن كلّهم حول السيد ماندیل المسكين وهو واقف هنا، بين الرجليْن، ونظارته على جبينه، ينظر مرة إلى هذا ومرة إلى ذاك، دون أن يعرف بالضبط ماذا يريدان منه. أمّا أنا فقلت مباشرةً للدّركي إنه لا شكّ مخطئ، وإن رجلاً في طيبة السيد ماندیل لا يمكن أن يسيء حتى إلى ذبابة. ولكن عون البوليس السري صرخ في وجهي ونهَرني بألاّ أتدخّل في المسائل الإدارية. ثم قاداه وانصرفا. ومر وقت طويل، حوالي عامين، ولم يعد. وحتى هذه الساعة، لا نعلم بالضبط بماذا كانوا يتهمونه. لكنّي أقسم لك -قالت العجوز البسيطة وهي تتدفأ- السيد ماندیل لا يمكن أن يقترف أي عمل سيّئ. لقد أخطأ الأعوان، ولتوضع يدي في النار إن لم يكن الأمر كذلك. لقد ارتكبا جريمة بإيقافهما بريئًا، جريمة!»

كانت على حق، تلك المرأة الطيبة سبورشيل. في الواقع لم يرتكب صديقنا جاكوب ماندیل جريمة، بل إنّه (ولم أعلم بهذه الجزئية إلا فيما بعد) ارتكب حماقة لا يمكن تصوّرها، مؤثّرة، ولكنّها لا تصدّق في تلك الفترة الهائجة والمائجة، حماقة لا يمكن تفسيرها إلا بطريقته المذهلة في العيش في كوكب آخر، متجاهلاً الباقي كلّه. وإليك ما حدث له: في المكتب العسكري للرقابة، المكلف بمراقبة المراسلات مع البلدان المحايدة، تم في أحد الأيام التقاط بطاقة بريدية مكتوبة، موقّعة وخالصة الرسوم المستحقة نحو بلد أجنبي، من قبل شخص يدعى جاكوب ماندیل. والأغرب أنها مرسلة إلى بلدٍ عَدوٍّ، إلى جان

لابوردير، كتبيّ بباريس، رصيف غرونيل. يحتج فيها جاكوب ماندیل هذا على عدم تسلّمه الأعداد الثمانية الأخيرة من شهرية «النشرة الببليوغرافية لفرنسا» مع أنه دفع ثمن اشتراكه السنوي مُقدّمًا. حتّى أنّ العون المأمور بالرقابة، وهو أستاذ تعليم ثانوي متخصص في الدراسات الرومانية[1] ألبسوه زيّ الاحتياطيين الأزرق، لم يصدق عينيه عندما قرأ الوثيقة. «إنها مزحة»، قال في نفسه. كان يقرأ كل أسبوع ما يقارب ألفي رسالة مُنقّبًا عن اتصال مريب أو مُقتفيًا أثر جاسوسية؛ ولم يصادف أن وقع بين يديه شيء عبثيّ كهذا: شخص يبعث برسالة من النمسا إلى فرنسا، ويودِع مرتاح البال في صندوق البريد بطاقةً مُوجّهةً إلى بلد عدوّ، كأن الحدود منذ 1914 لم تكن قد خيطت بأسلاك شائكة، وكأن فرنسا وألمانيا والنمسا وروسيا لا تتبادل قتل آلاف البشر! ولأجل ذلك وضع تلك البطاقة في البداية في درج، بوصفها نادرة من النوادر، دون أن يدوّنها في السجلات أو يجهر بذكرها. وإذا ببطاقة أخرى تصل بعد بضعة أسابيع، مرسلة هذه المرة إلى جون ألدريدج، بائع كتب في لندن، هولبرون سكوير، وكاتبها للمرة الثانية هو ذلك الشخص الغريب نفسه، المدعو جاكوب ماندیل، وهو يطلب فيها إرسال الأعداد الأخيرة من مجلة الـ«أنتيكواريان». بدأ الأستاذ يحس بالضيق داخل زيّه: ألا يكون في واقع الأمر ما وراء هذه المزحة الفظة هو رسالة مشفرة ؟ نهض وحيّا رائده وهو يضع البطاقتين على مكتبه. أدخل الضابط رأسه بين كتفيه وتمتم: غريب، غريب جدًّا! أمر الشرطة في البداية بالتحري

(1) إحدى اللّغات المشتقة من اللاتينية العامية.

لمعرفة ما إذا كان هذا المُسمّى جاكوب ماندیل موجودًا بالفعل. وما هي إلاّ ساعة حتى قبض على ماندیل وجيء به إلى الرائد مُترنّحًا من فرط البغتة. أراه الضابط البطاقتيْن الغامضتيْن وسأله هل يقرّ بأنه المرسل. اغتاظ ماندیل من تلك اللهجة الشديدة، وغضب من إزعاجه والحال أنه كان بصدد قراءة فهرس هام، فردّ في لهجة تكاد تماثلها غلظة أنه هو الذي كتب البطاقتين بكل تأكيد... «أليس من حقنا أن نطالب باحترام اشتراكٍ دفعنا ثمنَه». التفت الرائد إلى الملازم الجالس إلى طاولة مجاورة. تبادلا نظرة متواطئة مفادها أنّ الرجل مختلّ! تساءل الرائد لحظة هل سيكتفي بتوبيخ هذا المسكين وتسريحه، أو يأخذ حالتَه مأخذ الجدّ. وعندما يعجز موظف عن اختيار القرار المناسب، فإنّه في أغلب الحالات يُحرّر محضرًا. فالتقرير دائما ما يكون أمرًا جيدًا. حتّى إن لم يصلح لشيء، فلن يُلحق أيّ ضرر على كلّ حال؛ إن هو إلا قطعة ورق مغطاة بكلمات، ستضاف إلى مثيلاتها من ملايين الأوراق.

بيد أن كلّ هذا، إن وضعناه في الاعتبار، قد أساء إلى رجل مسكين، فمنذ السؤال الثالث، انكشف ما خبّأته الأقدار. سُئل في البداية عن اسمه: جاكوب، بالضبط جانكيف، ماندیل؛ مهنته: بائع جوّال. (لم يكن يملك شهادة كتبيّ، بل رخصة بائع متجوّل فقط). السؤال الثالث جاء بالكارثة: مكان الولادة؟ ذكر جاكوب ماندیل بلدة صغيرة قرب بتريكو. قطّب الرائد جبينه. بتريكو... أليست في بولندا الروسية، قرب الحدود؟ مريب، مريب جدّا! ومن ثَمّ صار الاستجواب أكثر حدّة: متى حصل على الجنسية النمساوية؟ ثبّت

فيه مانديل نظره، من خلف نظارته، في حيرة واستغراب؛ لم يفهم شيئا. هل لديه وثائق، شهادات، وأين... اللعنة! لم يكن يملك شيئًا عدا رخصة الجوالة. ازدادت ملامح الرائد تقطيبًا: ليقلْ في النهاية من أيّ جنسية هو. هل كان أبوه نمساويا أم روسيا؟ أجاب مانديل برصانة تامة: - روسي، بطبيعة الحال. - وهو؟ ... هو، عبَر الحدود خلسة منذ ثلاثة وثلاثين عامًا للفرار من الخدمة العسكرية. ومنذ ذلك الوقت وهو يعيش في فيينا. كان ذهول الرائد يتزايد شيئًا فشيئًا: - وهل حصل على الجنسية النمساوية؟ - «ما جدواها؟» أجاب مانديل. فهو لم يشغل نفسه مُطلقًا بمثل هذه المسائل،- إذن هو ما يزال مواطنا روسيًّا؟... أجاب مانديل بغير اكتراث، وقد أزعجه هذا الاستجواب منذ بدايته: «في الحقيقة، نعم.»

انقلب الرائد بغتة في أريكته حتّى طقطقتْ. كان ذلك ممكنًا إذن! في 1915، بعد تارنو[1]، بعد الهجوم الأكبر، هناك رجل روسّي يتفسّح، والحرب مستعرة، في فيينا، في عاصمة النمسا، وزد على ذلك أنه يكتب رسائل إلى فرنسا وإنكلترا، والشرطة غافلة عنه! ثم تجد من الأغبياء من يستغرب على أعمدة الصحف كيف لم يزحف كونراد فون هوتزندورف[2] في هجمة واحدة على وارسو! ثمّ تُفاجأ أركان جيشنا بأن كل تحركاتها العسكريّة ينقلها الجواسيس مباشرة إلى الروس! كان الملازم قد نهض هو أيضا، وقف أمام المكتب وقد

(1) هجوم غورليتس-تارنو Görlitz -Tarnów: هو هجوم قادته ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى لتخفيف الضغط الروسي على جيوش النمسا المجر.

(2) Conrad von Hötzendorf: رئيس أركان جيش إمبراطورية النمسا-المجر من 1906 إلى 1918.

تحوّلت المقابلة إلى استنطاق صارم: «لماذا لم تُصرّح في الحال بأنك أجنبي؟» أجاب ماندیل بلهجته اليهودية المترنّمة، وهو لا يزال غافلاً عمّا يحدث له: «ولماذا ينبغي أن أصرّح بذلك فجأة؟» رأى الرائد في الإجابة عن سؤاله بسؤالٍ استفزازًا، فسأله في نبرة تهديد: «هل قرأت البلاغات الرسمية؟»-«كلاّ»- «ألا تقرأ الصحف أيضًا؟»- «كلا.»

ذُهل الموظّفان، كأنّ أحد سكان الكواكب البعيدة حطّ على مكتبهما. أمّا جاكوب ماندیل، وقد نفد صبره، فكان يتفصّد عرقًا. حينها رنّ الهاتف وطقطقت الآلات الكاتبة، وهبّ الحرسُ، واقتيد جاكوب ماندیل إلى سجن الثكنة لكي ينقل، في الفوج المقبل، إلى واحدٍ من المعتقلات. عندما طُلب منه أن يتبع الجنديين، نظر إليهما في ذهول. لم يفهم ماذا يراد منه، ولكنه لم يكن قلِقًا. فلماذا سيضمر له ذاك الرجل ذو الياقة المذهبة، والصوت الصارم نوايا سيئة؟ في عالمه العلوي، عالم الكتب الذي يعيش فيه، لم يكن ثمة سوء فهم، ولا حرب، وإنما رغبة وحيدة على الدوام، هي أن نعرف دائمًا مزيدًا من الكلمات والتواريخ والعناوين والأسماء. نزل المدرج إذن هادئ البال والجنديّان يخفرانه. وفي مركز الشرطة أخرجوا من جيوبه كل الكتب، وصادروا دفتره الذي يحوي مئات المذكرات والعناوين الهامة. حينها فقط قاوم بحنَقٍ، فاضطرّوا إلى السّيطرة عليه. فسقطت للأسف! نظّارته، ذلك المنظار السحريّ الّذي كان يربطه بالعالم الفكريّ، وتهشّمت شظايا. بعد يومين، أرسلوه، وهو في معطفه الصّيفيّ الخفيف، إلى معتقل للمدنيّين الرّوس قرب كومورن[1].

(1) Komorn أو Komárom مدينة مجرية على ضفتي نهر الدانوب.

لم تَرد أيُّ شهادةٍ عن العذاب المعنوي الّذي عاناه ماندیل في ذلك المعتقل خلال عامين. كان وهو دون كتبه، كتبه العزيزة، ودون نقود، وقد أحيط في محشر البشر ذاك بجموع لامبالية، فظّة، من الأمّيّين، مثل نسر اقتُلع من الأثير بعد أن قُطع جناحاه. ولكن شيئًا فشيئًا، وعى العالَمُ بعد أن عاد إلى رشده، أنّ من بين كلّ أعمال الحرب الكبرى الإجراميّة الشّنيعة، لم يوجد شيء أكثر حمقًا وطيشًا، ولا أشدّ دناءةً في الأخلاق من تجميع مدنيّين أجانب وتكديسهم، خلف أسلاك شائكة، بعد أن تجاوزوا منذ زمن طويل سنّ السّلامة الصّحيّة، ووثقوا في الضّيافة، التي يقدسها حتى التنغوس[1] والأروكانيون[2]، فلم يقرؤوا حسابًا لفكرة الفرار في الوقت المناسب. ارتُكبت هذه الجريمة ضدّ الحضارة للأسف، بنفس العبثيّة في فرنسا وألمانيا وإنكلترا، وفي كلّ ركن من الأرض، في قارّتنا الأوروبيّة المسكينة المصابة بالجنون. ومثل الكثير من الأبرياء في تلك الحديقة البشرية، كان يمكن لجاكوب ماندیل أن يقع فريسة الجنون، أو يهلك بؤسًا، أو يقضي عليه الإسهال أو الإرهاق أو اليأس، لو لم تُرْجعه فجأةً تلك الصُّدفةُ النّمساويّة إلى وسطه الطّبيعيّ. فمنذ اختفائه، وصلت إلى عنوانه، في العديد من المرّات، رسائل شخصيّات بارزة. فالكونت شونبرغ، حاكم ستيريا[3] الأسبق، وهو من هواة جمع المصنّفات المتحمّسين في علم شعارات النّبلاء؛ وسيغنفيلد العميد الأسبق لكليّة علم اللاّهوت، وكان يشتغل على أحد تفاسير القدّيس

(1) Toungouses: فرقة بدائية من شعوب سيبيريا.

(2) Araucans: سكان منطقة أروكانيا بوسط شيلي.

(3) Styria: ولاية جنوب شرق النمسا.

أوغستين؛ وفارس بيزيك، الأميرال المتقاعد ذو الثّمانين عامًا، وكان لا يني ينمّق مذكّراته- جميعهم، وهم زبائن أوفياء، قد راسلوا مرارًا عديدةً جاكوب ماندیل في مقهى غلوك؛ وبعض تلك الرسائل أُعيد إرسالها إلى المختفي في معتقله. وهنالك وقعت تحت أنظار نقيب رحيم، تعجب من العلاقات المميزة التي يحظى بها ذلك اليهودي القميء القذر والأعمى تقريبا، ماندیل الّذي ظلّ بعد أن هُشّمت نظّارته (ولم يكن لديه نقود كي يقتني واحدة أخرى) قابعًا في ركن، أخرس شاحبًا كالخلْد. فالرجل الذي يكون على علاقة بمثل تلك الشخصيات لا يمكن أن يكون شخصًا عاديًّا. سمح النقيب عنئذٍ لماندیل بأن يردّ على تلك الرسائل ويطلب من أصحابها أن يتدخّلوا لفائدته، فلم يبخلوا عليه بذلك. وبالتضامن المتحمّس لكلّ هواة المجموعات، استطاع صاحب السموّ ، والعميد أن يستغلاّ علاقاتهما إلى أقصى حدّ، وبفضل ضمانتهما معا، أمكن لماندیل بائع الكتب القديمة أن يعود إلى فيينا عام 1917 بعد اعتقال دام عامين، شريطة أن يذهب إلى الشّرطة كلّ يوم. وبغضّ النّظر عمّا حدث، صار بإمكانه مرّةً أخرى أن يتنقّل بحُريّة، ويقيم في غرفته الرّخيصة القديمة، وأن يمرّ أمام رفوف الكتب، وأن يستقرّ خاصّةً في مقهى غلوك من جديد.

كانت السيدة الطيبة سبورشيل قد شهدت عودة ماندیل إلى المقهى، بعد ذلك الجحيم. واستطاعت أن ترويها لي بأمانة: «ذات يوم، يا يسوع مريم! لم أصدّق ما رأته عيناي، انفتح الباب قليلاً، وأنت تعرف جيّدًا كيف كان يدخل دائمًا: ما يكفي لمروره. وها أنّ ماندیل المسكين يدخل مترنّحًا. كان يرتدي معطفًا عسكريًّا مُرقّعًا

كلّه، وعلى رأسه شيء ربما كان فيما مضى قبّعة وقع التخلّص منها. لا ياقة، ولا ربطة عنق، ملامح شخص أُخرج من قبر، السحنة رماديّة، والشعر رماديّ أيضًا، كان شاحبًا شحوبًا يثير الشفقة. ولكنه دخل وكأنّ شيئًا لم يكن. لم يقل شيئًا، لم يطلب شيئًا، اتجه إلى طاولته التي توجد هنالك، وخلع معطفه - ليس كما كان يفعل من قبل، بخِفّة وراحة، بل بمشقّة كبرى ولهاث كثير. ولم تكن جيوبه، كالعادة، محشوّة بالكتب؛ اكتفى بالجلوس ونظر مباشرة أمامه، وعيناه محوّقتان فارغتان. ورغم ذلك شرع شيئًا فشيئًا في القراءة ، حين حملنا إليه حزمة أوراق جاءته من ألمانيا. ولكنّه لم يعد هو نفسه.

كلاّ، لم يعد حقّا هو نفسه. كفّ عن أن يكون أعجوبة العالم، السّجلّ العظيم لكلّ الكتب. كلّ من رأوه في تلك الفترة قالوا لي ذلك بكثيرٍ من الحنين إلى الماضي. شيء مّا يبدو أنه انكسر في نظرته إلى الأبد، نظرته التي كانت فيما مضى هادئة وواثقة؛ شيء مّا قد تحطّم. لا شكّ أنّ النّجم المذنّب الفظيع الدّامي قد اصطدم، في سباقه الجنوني، بالنجم الألكيوني[1] الهادئ الوحيد في كونه المصنوع من الكتب. ولا شكّ أنّ عينيه المتعوّدتيْن منذ عشراتِ السنين على أرجل الذباب الدقيق للأحرف المطبعية رأتا أشياء مرعبة في حديقة البشر المسيّجة بالأسلاك الشائكة. فقد أطبق الجفنان الثّقيلان على حدقتيْه اللّتين كانتا كانتا في غاية الحركة والسّخرية؛ وأضحت العينان المتوهّجتان ناعستيْن، وقد طُوّقتا بحمرة، خلف نظارة شُدّت بخيوط.. والأكثر فظاعة من ذلك كلّه هو: أنّ دعامة من دعائم ذاكرته المذهلة قد

(1) Alcyon: نجم من عقد الثريّا.

تهاوت، فهوى البنيان كلّه. ذلك أنّ دماغنا بالغ الحساسية، فتلك الدّواليب، وتلك الآلة الدّقيقة قد صُنعت من مادّة شديدة الرّهافة، إذ يكفي أن ينسدّ وَريدٌ، أو يتزعزع عِرقٌ، أو تُستنزف خليّةٌ، أو تنحرف جُزَيْئة، ليتهافتَ التّناغم الكونيّ عند أكثر العقول سموًّا. كذلك هي ذاكرة ماندیل الّتي لا مثيل لها في رحابة المعرفة، ما عادت مفاتيح لوحتها تعمل. فعندما كان يأتيه أحدُهم من وقت إلى آخر ليطلب منه نصيحة، يحدّق فيه بنظرةٍ تائهة؛ فلم يعد يفهم ما يقال له، وصار ينساه بسرعة. لم يكن ماندیل كما كان ماندیل، ولا كان العالم كما كان. لم يعد يتمايل عند القراءة بتركيز عميق. كان يظلّ جالسًا بلا حراك، ونظارته مُصوّبة بشكل آلي إلى كتابه. وكثيرًا ما كان رأسُه -فيما تروي السّيّدة سبورتشيل- يميل بتثاقل على الكتاب فينام في عزّ النّهار. وأحيانًا، كان يثبّت نظره طوال ساعاتٍ على قنديل لمبة الأسيتيلين الكريهة الرّائحة الّتي وُضعت على طاولته في تلك الفترة حين انقطع الفحم. كلاّ، لم يكن ماندیل كما كان ماندیل. لم يعد أعجوبة العالم، بل صار خرقةً بائسة، ذقنًا وملابس، يتنفّس بصعوبة، ويتهالك على مقعده الذي كان فيما مضى بيثيًّا[1]. لم يعد يمثّل مجد مقهى غلوك. صار فضيحةً، وشخصًا قذِرًا، نتنًا، قبيحَ الهيئة، طُفيليًّا ثقيلا.

كان ذلك أيضًا رأي المالك الجديد، ويُدعى فلوريان غورتنر، من ريتز، أثرى أثناء مجاعة عام 1919 بالمتاجرة في الزبدة والدقيق، ثم أقنع السيّد ستندارتنر بأن يتنازل له عن مقهى غلوك مقابل ثمانين ألف كرونة ورقيّة تهاوت قيمتها بسرعة. بدأ العمل بوصفه مُزارعًا

(1) نسبة إلى أبولون الذي كان يلقب بالبيثي وتقام على شرفه ألعاب كل أربع سنوات.

نشيطًا، وما لبث أن حوّل المقهى القديم إلى محلٍّ فاخر. واشترى في الوقت المناسب، مقابل أوراق بلا قيمة ماليّة، أرائكَ جديدة، وأنشأ مدخلاً من رخام، وبدأ يتفاوض لبعث عُلبة ليليّة في المحلّ المجاور. وبحكم سرعة تجميل المكان، صار منزعجًا بطبيعة الحال من طُفيليّ غاليسيا الّذي كان يشغل طاولةً من الصّباح إلى المساء دون أن يستهلك سوى فنجانين من القهوة وخمسة أرغفة طرية. صحيح أنّ السّيّد ستندهارتنر قد أوصى خيرًا، على وجه خاصّ، بحريفه العجوز، مُحاولاً أن يشرح له مدى أهميّة شخصيّة جاكوب ماندیل هذا وفرادتها: كان تقريبا قد سلّمه إياّه مع قائمة الجَرد، مثل خدمة تابعة للمحلّ. ولكن مع الأثاث الجديد وخزينة الألمنيوم اللاّمعة، تبنّى فلوريان الذّهنيّة الفظّة من الباحثين عن الرّبح المضمون، ولم يكن ينتظر سوى ذريعة لتطهير مقهاه الّذي صار «مُنتخَبًا» من ذلك الأثر الأخير وغير اللائق لفقر الضواحي. وسرعان ما أتيحت له الفرصة، إذ كان جاكوب ماندیل في وضع صعب: فآخر أوراقه الماليّة قد تبخّرت في طاحونة التّضخّم الماليّ، وتشتت حرفاؤه. ولم يعد له من القوّة ما يكفي لصعودِ الطوابق بوصفه بائعَ كتبٍ صغيرًا والتنقلِ من باب إلى باب لشراء الكتب. لقد نفد كلّ ما لديه، وهذا واضح من عدة مؤشّرات. صار نادرًا ما يطلب أكلاً من المطعم المقابل، ويتأخّر في تسديد ثمن قهوته وأرغفته، وفي إحدى المرّات دام التأخير ثلاثة أسابيع. أراد رئيس الندل طرده، ولكن السيدة سبورشيل الطيبة، أشفقت عليه، ودفعت عوضا عنه.

ولكن المصيبة حلّت في الشهر التالي، فقد لاحظ رئيس الندل

عدة مرات أنّ حساب الخبز غير دقيق. فما انفكّت أرغفة الخبز الّتي اقتناها، ودفع ثمنها بنفسه، تختفي من المحلّ. واتّجهت شكوكه بطبيعة الحال إلى ماندیل، لأنّ الوكيل العجوز المرتعش سبق له أن اشتكى عدّة مرات من ماندیل الّذي لم يدفع له منذ ستّة أشهر، ولم يستطع أن يستخلص منه فلسًا واحدًا. شدّد رئيس الندل الحراسة على ماندیل، ولم يمض يومان حتى ضبطه متلبّسًا. كان مختبئا خلف جهاز التدفئة حين لمح ماندیل ينهض خفية ويتجه إلى القاعة المجاورة، فيأخذ من السلة رغيفين طريين ويلتهمهما بشراهة. ولما طلب منه تسديد ثمنهما ادّعى أنّه لم يأكل شيئًا. انكشف اللغز الآن. نقل رئيس الندل الحادثة إلى السيد غورتنر، فسرّ الرجل بحصوله أخيرًا على ذريعة، ونهض يكيل الشتائم لماندیل أمام الجميع، ويصمه بالسارق، وهو يعلن جهارًا أنّه لم يبلغ الشرطة بعد، ثم أمره بأن يغرب عن وجهه في الحال وإلى الأبد. لم يفه جاكوب ماندیل بجواب، نهض بصعوبة، مرتجفًا، وانصرف.

«كان مشهدًا مؤلما»، قالت السّيّدة سبورتشيل وهي تستحضر ذلك الرّحيل. «لن أنساه أبدًا. نهض ونظّارتُه على جبينه، شاحب اللّون مثل الغسيل؛ لم يتمهّل حتّى يرتدي معطفه، وكنّا في عزّ شهر يناير، ولا بدّ أنّك تذكر برد تلك السّنة القارس. وفي غمرة ذعره نسي كتابه على الطّاولة؛ تفطّنتُ إليه بعد فوات الأوان، وأردتُ أن أركض خلفه لكي أسلّمه إيّاه، ولكنّه كان قد غادر المحلّ، فلم أجرؤ على اللّحاق به في الرصيف، لأنّ السيّد غورتنر كان يشتمه والناس يتجمّعون. نعم، كانت فضيحة! وأحسستُ بالخجل يبلغ أعماق

روحي.مستحيل أن يحدث شيء من القبيل أيّام السيّد ستندارتنر، مستحيل أن يُطرد شخص فقط لأنه اختلس بضعة أرغفة. في زمنه، كان يمكن لمانديل أن يأكل مجّانًا حتى آخر أيّامه. ولكن ذلك هو الوضعُ اليوم، لقد انعدمت الرّحمة من قلوب النّاس. طُرد زبون يرتاد هذا المكان منذ أكثر من ثلاثين عامًا! إنّها فضيحة بحق! لا أريد أن أحاسب على مثل هذا أمام الربّ الكريم - لا أريد هذا، كلاّ!

كانت تلك المرأة الطيّبةمنفعلةً، وبفصاحة العجائز المتحمّسة، لا تنفك تتحدث عن تلك الفضيحة، وتكرّر القول إنّ ذلك ما كان ليحدث مع السيد ستندارتنر. سألتها في الختام عمّا جرى لصديقنا مانديل، وهل رأته بعد ذلك. حينها ازداد تأثّرها فاستأنفت الكلام دفعة واحدة: «كل يوم، عندما أمرّ قرب طاولته، صدّقني، كان قلبي يتمزق. كنت أتساءل دائمًا رغما عني أين هو الآن ذلك المسكين السيد مانديل. لو كنت أعرف أين يسكن، لحملت إليه طعامًا ساخنًا. لأنه لم يكن يملك قَطْعًا ما يُدفئه وما يغذّيه، وعلى حدّ علمي، لم تكن له أسرة، ولا أحد على وجه الأرض. في النّهاية، لمّا انقطعت عنّي أخباره، أيقنت أنّي لن أراه ثانيةً أبدًا، ولا بدّ أنّه مات. وكنت قد بدأتُ أتساءل ما إذا كان ينبغي أن أقيم له قُدّاسا، لأنّه كان رجلاً طيّبا، ثمّ إنّنا تعارفنا منذ أكثر من خمسٍ وعشرين سنة.

«ولكن ذاتَ صباحٍ باكر، في السابعة والنصف، خلال شهر فبراير - كنت ألّمع أُكَر النوافذ - وفجأةً فُتح الباب وأطلّ مانديل! (خِلت أني سيغمى عليّ وأنا متيبّسة!) تعرف أنه كان يدخل دائمًا بخطوٍ خفيف، وكأنّه مُحرج. ولكن هذه المرّة، كان الأمر مختلفا

قليلا. لاحظتُ في الحال أنّه فَقَدَ كامل رُشده. كانت عيناه تبرقان. إلهي، يا للهيئة البائسة! لم يبق منه غير الجلد والعظام! بدا لي فورًا أنّه ممسوس. ثم فهمت: المسكين لم يعد يعي أيّ شيء، يتجوّل في وضح النهار كمن يسير وهو نائم، لقد نسيَ كلّ شيء، حكاية أرغفة الخبز، وفضيحة طرده. من حسن الحظّ، أنّ السيّد غورتنر لم يصل بعد وأنّ رئيس الندل كان يتناول قهوته. أسرعت إليه: شرحتُ له أنه لا ينبغي أن يبقى هنا، وإلا فإن الرجل الفظّ سيطرده مرة أخرى.» (والتفتت السّيّدة سبورشيل التفاتةً قلقة، بعد أن قالت ما قالت، ثم استأنفتْ بسرعة)، «أقصد السّيّد غورتنر. ناديت إذن: «هر ماندیل!» رفع نحوي عينيه. عندئذ يا إلهي، في تلك اللحظة، كان الأمرُ فظيعًا، فقد استعاد ذهنُه دون شك كلَّ شيء. انتفض وبدأ يرتعد ليس من جهة يديه فقط، وإنما يرتعد من كامل جسده، وكنّا نرى ذلك من كتفيه. ثم اتجه إلى الباب مترنّحًا فوقع هنالك مغشيًّا عليه. اتصل أحدُهم ببوليس النجدة الّذي لم يتأخّر في المجيء، فحمله وهو محموم. في ذلك المساء نفسه، توفي؛ نزلة صدرية في الدرجة النهائية، قال لنا الطبيب، وقال أيضًا إنّه لم يعد يعرف بالضبط ماذا يفعل حينما عاد مرة أخرى إلى المقهى. شيءٌ ما دفعه دفعًا كالمُسَرْنم. أقسم لك، عندما يكون المرء جالسًا إلى نفس الطاولة كل يوم لمدة ثلاثين عاما، فإنه يعود إليها كما يعود المرء إلى حضن الأسرة.»

واصلنا الحديث عنه طويلاً، نحنُ الاثنيْن اللذيْن عرفا ذلك الرجل الخارق: أنا، الشابّ الّذي كشفَ له لأوّل مرّة، رغم حياته البائسة الشبيهة بحياة ميكروب صغير، امتلاء الحياة الروحانيّة؛

وهي، المرأة الطيّبة المتكفّلة بدورة المياه، المرأة الّتي لم تقرأ كتابًا واحدًا في حياتها، و كانت علاقتها الوحيدة برفيقها هذا في عالم الفقر تتمثل في أنها كانت تنظّف معطفه وتخيط أزراره طيلة خمسة وعشرين عامًا. ورغم ذلك كنّا نتفاهم جيّدًا أمام طاولته القديمة المهملة، ونتواصل مع طيفه الّذي نستحضره معًا، لأنّ الذّكرى تؤلّف القلوب دائمًا، خاصّة الذّكرى الوَدُود. وفجأةً، فيما هي تحدّثني، خطرَتْ ببالها فكرة: «يا يسوع اللّطيف! لقد فقدتُ ذاكرتي! ما زال عندي كتابه، الكتاب الذي تركه زمانًا على الطاولة. كيف أُعيده إليه؟ وحين لم يطلبه أحدٌ لاحقًا، رأيتُ أنّه يمكني الاحتفاظ به على سبيل الذّكرى. تُرى، هل أسأت التّصرف؟» وبسرعة نهضَتْ تبحث عنه في غرفتها. ووجدتُ عنتًا في كتم ابتسامة خفيفة: لأنّ القدر، المتهكّم على الدوام، والساخر أحيانًا، يمزج بخبثٍ الهزل بالأحداث الأشدّ إيلامًا. كان الكتاب هو الجزء الثاني من «المكتبة الجرمانية الإيروسية العجيبة» لهاين[1]، وهو مصنّف في أدب الظّرف والظّرفاء معروف حقّ المعرفة عند جميع هواة الكتب. ومن سخرية القدر - فلكلّ كتاب قدرُه[2]- أن يقع هذا الكتاب الماجن بين اليدين المغضّنتين المحمرتين والمشققتين، اليدين الجاهلتين اللتين لم تُمسكا قَطُّ بغير كتب الصلاة! وجدتُ صعوبة في كتم ابتسامة افترّت لها شفتاي، فأربك ذلك التردد المرأةَ إذ سألتني هل الكتاب نفيس، وهل يمكن، حسب رأيي، أن تحتفظ به.

(1) Bibliotheca germanorum eroctica et curiosa للناشر والبليوغرافي الألماني هوغو هاين (1843-1923).

(2) باللاتينية في الأصل habent sua fata libelli وهي جزء من مقولة pro captu lectoris habent sua fata libelli ومعناها «على قَدْر أهل القراءة يكون للكتاب قدَره».

ضغطتُ على يديْها بكلّ مودّة. «لا تشغلي بالك، احتفظي به! صديقنا الحميم ماندیل سيكون سعيدًا لأنّ واحدةً على الأقل من بين آلاف البشر الذين عثر لهم على كتاب لا تزال تتذكّره.» ثم انصرفتُ، وأنا أشعر ببعض الخجل من تلك العجوز الطيّبة الّتي بقيَتْ وفيّةً لذلك الميت، بطريقة بسيطة، وبالغة الإنسانيّة. هي الّتي لم تتعلّم احتفظتْ منه على الأقلّ بكتابٍ كي تتذكّره أفضل ذكرى. أمّا أنا، فقد نسيتُ ماندیل طيلة أعوام، أنا الّذي كان عليه أن يعرف أنّنا لا نُنتج الكتب إلاّ لكي نبقى على صلة بالبشر فيما وراء الموت، فنذود بذلك عن أنفسنا ضدّ العدو الألدّ لكلّ حياة، ضدّ الزّمن الّذي يمضي.. ضدّ النّسيان.

المجموعة الخفيّة

في المحطة الثانية بعد درسدن، دخل عربتَنا رجلٌ مسنّ، حيّانا بأدب؛ ثم جلس، وبعد فترةٍ رفع عينيه نحوي وأومأ إليّ برأسه كأنّي واحدٌ من معارفه القدامى. فألفيتُ نفسي لأول وهلةٍ عاجزًا عن تذكُّرِ من يكون، ولكن ما إن نطَقَ باسمه في بسمة مرحة حتى تذكّرته فورًا: كان واحدًا من أشهر باعة التحف القديمة في برلين. لطالما كنتُ أتردّد عليه، في زمن السلم، لأشتري منه كتبًا وتواقيع. تبادلنا في البداية كلامًا عابرًا، ثمّ قال لي فجأةً:

لا بدّ أن أروي لك من أين جئت. لأنّ هذه الواقعة هي حقًّا من أعجب ما جرى لي في عملي طوال أكثر من سبعة وثلاثين عاما، أنا بائع التحف القديمة العجوز. وأنتَ نفسك تعرف، دون شكّ، كيف تباع القطع الفنيّة اليوم، فمنذ أن بدأت قيمة النقود تتلاشى وتتبخّر كالغاز، وانتبه الأثرياء الجدد إلى قيمة الأعمال الفنيّة، اكتشفوا فجأةً أنّ لهم ميلاً إلى صور العذراء القوطية، والطّبعات الاستهلالية[1]، والرّسوم النّافرة العتيقة واللّوحات. وكانوا يطلبون منّا ما يفوق طاقتنا على توفيره. فصار من اللاّزم أن نحترس منهم، حتّى لا ينهبونا، ويأتوا على الأخضر واليابس. فلو تركنا لهم الحبل على الغارب لانتزعوا منّا أزرار أكمامنا وأخذوا مصباح مكتبنا. ولذلك كان شاغلنا الشّاغل

(1) الكتب التي طبعت في الغرب قبل عام 1500. (كل الهوامش من وضع المترجم).

أن نجد لهم دائما بضائع جديدة. اعذرني لاستعمال هذا اللّفظ الفظّ «بضائع»، إذ أصبحنا نطلقه على أشياء كنّا في العادة نُجِلّها.

ولكن أولئك الرّعاع ما لبثوا أن عوّدونا على أن نرى في مخطوطة فينيسيّة[1] رائعة ما يعادل كذا وكذا من الدولارات، وفي رسم لـ«غويرتشينو»[2] مجموعة من الأوراق البنكيّة. ولم تكن رغبتنا في مقاومة نزق أولئك المشترين الطّارئين المسعورين مجديةً. وهكذا، ألفيت نفسي، مرة أخرى، بين عشية وضحاها منهوبًا وقد سلبوني كلّ شيء، فلم يبق لي غير إنزال ستائر واجهتي. في متجرنا القديم الّذي ورثه أبي عن جدّي، صرت أستحي من نفسي لأنّي لم أعد أرى فيه إلاّ بضائع كاسدة، كان أي بائع جوّال، في سالف الأيّام، في الشّمال، يستنكف من شحنها في عربته.

أمام هذا المأزق، خطر ببالي أن أتصفّح في سجلاّتِ حسابِنا قائمةَ حرفائنا القدامى، عسى أن أكتشف منها واحدًا يُمكن أن آخذ منه بعض القطع الّتي يمتلك منها نظيرًا. وقد كانت تلك القوائم دائمًا شبيهةً بالمقبرة، لا سيّما في أيّامنا هذه. لذلك لم أعثر فيها على شيء ذي بال. فأغلب حرفائنا القدامى قد ماتوا أو اضطروا منذ وقت طويل إلى بيع مجموعاتهم في المزاد العلني. أمّا البقيّة الباقية منهم على قيد الحياة فليس لديهم ما يقدّمونه لي. غير أنّ يدي وقعت فجأةً على رزمة من الرسائل قد بعثها دون شكّ واحدٌ من أقدم حرفائنا، ولم يخطر ببالي البتّة، ربّما لأنّه لم يعد يسأل عن أيّ جديد أو يوصي بطلب

(1) نسبة إلى فينيسيا، مدينة البندقية.

(2) Guercino غويرتشينو (1591-1666) رسّام باروكي إيطالي.

بضاعة منذ بداية الحرب، في 1914.

وترجع مراسلاته – دون أن أبالغ – إلى ستّين سنةً خلت. فقد سبق له أن تعامل مع أبي وجدّي. غير أنّي لا أذكر أنّه دخل متجرنا منذ الأعوام السّبعة والثلاثين الّتي تولّيت خلالها إدارته. وكان كلّ ذلك يحمل على الظّنّ بأنّه يمكن أن يكون رجلاً غريبَ الأطوار، مُثيرًا للسخرية بعض الشّيء، موسومًا بعادات تلك المرحلة وتقاليدها. كان واحدا من أولئك الألمان الّذين رسمهم مانزل[1] وسبيتزفيغ[2]، ومازالت بعض النّماذج النّادرة من تلك الرّسوم محفوظة هنا وهناك في قرى الرّيف الصّغيرة، حتى وقت قريب. وكانت رسائله مكتوبة بعناية، وقد سطّرت فيها المبالغ بالمسطرة والحبر الأحمر. ودائمًا ما كان يدوّن المبلغ الماليّ بالأحرف والأرقام معًا، لتجنّب أيّ احتمالٍ للخطأ. هذا إضافة إلى إيثاره الكامل للأوراق البيضاء والمظاريف المستعملة، وهو ما يشي بصَغارٍ وشُحٍّ لرجُلٍ ريفيّ لا يرجى منه صلاح. وكانت تلك الوثائق الغريبة تحمل، علاوة على توقيعه، سلسلة من الألقاب: مستشار غابيّ شرفي، ملازم أوّل احتياطي شرفي، حامل لصليب الحديد من الدّرجة الأولى. وبما أنّه من المشاركين في الحرب سنة 1870[3]، فلا بدّ أن يكون قد بلغ الثّمانين عامًا على أقلّ تقدير، هذا إذا كان ما يزال على قيد الحياة. ولكنّ هذا البورجوازي الصّغير، المقتصد بطريقة مضحكة، كان يمتلك خصالَ

(1) Adolph von Menzel: رسّام ألماني (1815–1905).

(2) Carl Spitzweg: شاعر ورسّام ألماني (1808–1885).

(3) حرب 1870 التي انتصرت فيها القوّات البروسيّة على جيش نابليون الثالث في سيدان.

جامع تُحفٍ قلّ نظيرُها. فمعرفتُه الواسعة بالرّسوم النّافرة تدلّ على ذوق رفيع. وعندما فحصت بالتّفصيل طلباته التي يرجع عهدها إلى ستين عامًا خلت، ووجدت أسعار الدفعة الأولى منها مدوّنةً بـ «الغروشن الفضي»[1]، لاحظت أنّ هذا الرّيفيّ الصغير قد جمّع، دون علم أحد، في الفترة التي كان يمكن خلالها الحصول على أجمل الرواشم[2] مقابل تالر[3] واحد، صندوقًا كاملًا من أجمل الأعمال الخشبيّة الألمانيّة المنقوشة، أي مجموعةً من الألواح يمكنها أن تنافس بقوّةٍ أشدَّ مجموعاتِ الأثرياء الجدد إثارةً للصّخب. فالقطع الّتي اشتراها منّا خلال نصف قرن بمقابل زهيد من الماركات والبفينيغ[4] تمثّل وحدها اليوم قيمة ذات بال. على كلّ حال، جميع القرائن تدعو إلى التخمين بأنه تعامل دون شكّ بالنّجاح نفسه مع باعة آخرين، واستفاد كذلك بنفس القدر من البيع في المزادات. وفي الحقيقة لم نتلق منه أيّ طلب منذ 1914. ولكن من جهتي، كنت على عِلْمٍ تامّ بما يُعقد من صفقاتٍ في سوق الفنّ، ولا أحسب أن عمليةَ بيعٍ واحدة في المزاد العلنيّ أو تفاوضًا خاصًّا حول مجموعة بهذه القيمة يمكنهما أن يفوتاني. حينها استخلصت أنّ هذا الرجل الغريب مازال على قيد الحياة، أو أنّ مجموعته قد صارت بين أيدي ورثته.

---

(1) Groschen: عملة فضية سارية في ألمانيا والنمسا سابقا. الشيلينغ Schilling يساوي مائة غروشن.

(2) الرواشم لوحات تنجز عن طريق الطباعة بالرسوم البارزة.

(3) Thaler : صكوك وعملات فضية كانت تستخدم في التجارة العالمية منذ عام 1741. وسميت باسم الملكة ماريا تيريزا تالر التي حكمت النمسا وهنغاريا وبوهيميا من عام 1740 إلى 1780.

(4) Pfennig : من أجزاء المارك الألماني سابقا.

فأثار ذلك فضولي، فقصدت من الغد، أي مساء أمس، واحدة من أشدّ المدن وعورة في السّاكس. ولما غادرت محطّة القطار الصّغيرة، ومشيت دون اكتراث في الشّارع الرّئيس، بدا لي أنّه لا يمكن أن نتخيّل بيتا متهدّما من هذه البيوت، بما فيه من سقط المتاع البورجوازي الصغير، يسكنه رجل يملك أروع الرّسوم المطبوعة[1] لرمبرانت، ورواشم دورر[2] ومنتينيا[3]، مشكّلا مجموعة كاملة قد صِينَت صيانة جيّدة. سألت في مكتب البريد ما إذا كان مستشار غابيّ يحمل هذا الاسم ما زال يقطن هنا، وكم كانت دهشتي عظيمةً حين علمتُ أن الرجل العجوز لا يزال فعلا على قيد الحياة. وبشيء من التأثر، أعترف بذلك، قررت أن أزوره في صبيحة اليوم نفسه.

لم أجد صعوبة في العثور على مسكنه. فقد كان يقيم في الطّابق الثّاني من تلك المباني الرّيفيّة الفظيعة الّتي شيّدها على أسس هشة، دون شكّ، أحد مقاولي البناء المتعجّلين، سنة 1860 تقريبًا، للمضاربة العقّاريّة. يسكن في الطّابق الأول خيّاط محترم. وفي الطّابق الثّاني تلمع على الباب الأيسر صفيحة موظف بريد؛ وفي آخر الأمر، تجد على اليمين، يافطة خزفيّة صغيرة باسم المستشار الغابيّ. ضغطت على الجرس في استحياء. وما هي إلاّ لحظة حتّى فتحت لي الباب سيّدة هرمة ذات شعر أبيض مغطّى بقبّعة سوداء أنيقة. ناولتها بطاقة زيارتي، وسألتها ما إذا كان بإمكان السّيّد المستشار أن

(1) Eau-forte: طريقة نقش رفيق على صفيحة معدنية باستعمال حمض النيترات.

(2) Albrecht Dürer: من كبار الرسامين الألمان (1471-1528).

(3) Andrea Mantegna: رسّام إيطالي من عصر النهضة (1431-1506).

يستقبلني. نظرتْ إليّ، ثم إلى البطاقة، متعجّبة وببعض الارتياب. ففي هذه المدينة الرّيفيّة الصّغيرة المهملة وفي هذا البيت المتواضع، تبدو الزّيارة حدثًا خارجًا عن المألوف. بيد أنها رجتني بلطف أن أنتظر لحظة. أخذتْ بطاقتي واختفت في الغرفة المجاورة. سمعتُها توشوش. وإذا بصوتِ رجلٍ يهتف فجأةً: - آه! السيد ر...، من برلين، تاجر التّحف القديمة الشّهير... فليدخل، فليدخل إذن! تسعدني زيارتك!» وعادت المرأة العجوز بخطى وئيدة لتدعوني إلى الصالون. فتخلّصتُ ممّا يثقلني وتبعتها.

في وسط القاعة، رجلٌ متين البنية، ذو شارب أشعث، حُشِرَ جسدُه في مِبذلٍ مثل جنديّ في زيّه، نهض باسطا يديه بمودّة. وكانت إيماءةُ التّرحاب هذه العفويّة الصّادقة الوَدُود تتعارض على نحو غريب مع وقفتَه المتصلّبة الجامدة. لم يتقدم للقائي. دنوت منه، وقد تفاجأت قليلا، كي أصافحه. غير أنّي حين هممت بإمساك يده، لاحظت أنّ يديه كانتا ثابتتين أفقيا، لا تبحثان عن يدي، بل تنتظرانها. وفي الحال، فهمت كل شيء: لقد كان هذا الرّجل أعمى.

منذ طفولتي، كان يعتريني دائمًا نوعٌ من الحرج حين أكون أمام أعمى. لم أقدر قطّ على مقاومةِ ضرْبٍ من الضّيق المخجل يعتريني بمجرّد التّفكير في أنّ رجلا حيّا يرزق لا يستطيع أن يراني كما أراه. لذا وجدت صعوبة في تمالك نفسي ما إن رأيت تيْنك العينيْن الكفيفتين وهُما تبحلقان في الفراغ تحت حاجبيْن كثيفيْن أبيضيْن. وسرعان ما جعلني الكفيف أشعر بالرّاحة، فما إن لمست يده حتى ضغط على يدي بقوة ورحّب بي من جديد، في مرحٍ صاخبٍ ولطف،

وقال ضاحكا بمودّة: يا للزّيارة غير المتوقعة، كيف أصدّق أنّ أحد سادة برلين يغامر بالمجيء بنفسه إلى هذه الحفرة... أوه! أوه! يقال ينبغي أن تحترس. فحينما يتجوّل واحد من أولئك السّادة في بلدتنا، فإنّنا نقول دائما: «أغلقوا أبوابكم وانتبهوا إلى جيوبكم عندما يأتي البوهيميّون.»... أي نعم! أُدرك جيّدًا لماذا جئت لزيارتي... الأمور سيّئة في وطننا المسكين، ألمانيا المقهورة. فحينما يعزّ وجود المشترين يتذكّر أولئك السّادة الكبار حرفاءهم القدامى، فيفتّشون عنهم مثل نعاج ضائعة... ولكن في بيتي أخشى ألاّ يحالفك الحظّ. فنحن، المتقاعدين المساكين، نفرح حين تكون على مائدتنا كسرة خبز. لم يعد بوسعنا أن نشتري أيَّ شيء بسبب الأسعار المشطّة الّتي تفرضونها الآن... فأمثالنا من النّاس قد غادروا نهائيًّا هذا المجال.

أجبته على الفور بأنّ الأمر قد اختلط عليه. فلم آت كي أبيعه أيّ شيء، إنّما أردتُ أثناء مروري بالجهة، أن أنتهز الفرصة وأقدّم آيات احترامي لواحد من أقدم حرفائنا، وأحد كبار جامعي التّحف في ألمانيا. وما إن نطقت بتلك الكلمات حتى اعترى وجه العجوز تحوّل غريب. كان ما يزال واقفًا، ثابتًا وسط الحجرة، إلاّ أنّ تعبيرًا مُشرقًا مفاجئًا عميقَ النّخوة قد سرى في موقفه. فالتفتَ إلى النّاحية الّتي يفترض أنّ زوجته موجودة فيها، كأنّه يريد أن يقول: «أسمعتِ!» ثم ترك النّبرة العسكريّة الخشنة الّتي اتّخذها في البداية ليقول لي بصوتٍ مرح ليّن:

– حقّا، هي بادرة جميلة من لدُنْك... ثمّ إنّك لم تجهد نفسك دون جدوى. فلسوف تُعجب بأشياء لا يراها النّاس كلّ يوم، ولا

في مدينتكم الباذخة برلين... بضع ألواح لا مثيلَ لجمالها لا في ألبرتينا[1] ولا في تلك اللّعينة باريس. ذلك أنّنا عندما نكون من جامعي الذّخائر طوال ستّين عامًا، نكدّس في نهاية المطاف أشياء لا يمكن أن تجدَها في زوايا الأنهج. لويز، ناوليني مفتاح الخزانة من فضلك.

في تلك اللّحظة، حدث أمر غير متوقّع. فالعجوز الصّغيرة، الّتي كانت واقفة خلفه تتابع حديثنا بأدبٍ مبتسمةً ابتسامة خفيّة، رفعت نحوي يديها في حركة متوسّلة. وحرّكت في الوقت نفسه رأسها راسمةً بعنفٍ علامةَ النّفي. لم أفهم في البداية شيئًا من تلك اللّغة الخرساء. عندئذ دنتْ من زوجها، ووضعتْ يديها برفقٍ على كتفه وقالت له في نبرة عتاب رقيق: - ولكن يا هرمان، ألا تسأل السيّد هل له متسع من الوقت كي يرى الآن مجموعتك. وقد حان منتصف النهار. بعد الغداء، ينبغي أن تستريح ساعة؛ فقد طالبك الطّبيب بذلك بكلّ صراحة. أوليس من الأنسب أن تعرض كلّ هذا على السيّد بعد الطّعام؟ سنحتسي معًا فنجانا من القهوة. وتكون آن ماري حاضرة، وهي أدرى مني بهذه المسألة وبوسعها أن تساعدك.

وما إن أتمّتْ كلامَها حتّى أعادتْ بسرعةٍ حركتَها المتوسّلة من خلال كتفيْ زوجها، دون أن يتفطن لشيء. عندئذ فهمتُ مُرادها. فقد كان يتوجّب عليّ أن أرفض رؤية المجموعة في الحال، ثمّ أتذرّع بأنّ لي موعدًا وقت الغداء، وأنّ بقائي سيكون من دواعي السّرور والشّرف، ولكنّني لن أكون في حِلٍّ من أي التزام قبل الساعة الثالثة.

(1) Albertina: قصر في فيينا تحول منذ 1801 إلى متحف للفنون.

وحينها سأعود بكلّ سرور.

أشاح الشّيخ بوجهه مغتاظا مثل طفل انتُزعت منه لعبته المفضّلة. وغمغم قائلا: - طبعًا، فسادة برلين ليس لهم أبدًا متسعٌ من الوقت لأيّ شيء. ولكن هذه المرّة، ينبغي أن تجد الوقت. فالمسألة لا تتعلق برؤية ثلاثة رواشم أو أربعة، بل بسبع عشرة حاملة أوراق، خُصّصت كلّ واحدة منها لعلَمٍ مختلف، وكلها ملآنة... اتفقنا! إلى الثالثة. ولكن كن دقيقا، وإلا فلن نبلغ خاتمتها.

ثمّ مدّ يدَه مُجدّدًا في الهواء نحوي، وقال لي: - أُنبئك بأنّك ستكون مسرورًا -كلاّ، بل ستتعذب. وكلّما ازداد عذابك تضاعفت متعتي. لأننا، نحن، جامعي التحف، خلقنا هكذا: كل شيء لنا، ولا شيء للآخرين!» ولكز يدي مرّة أخرى بمودّة.

رافقتني العجوز الصّغيرة إلى الباب. لاحظت عليها طوال ذلك الوقت نوعًا من الحرج، وانزعاجًا، وقلقًا تحاول مُداراته. عندما هممت بمغادرتها، غمغمت بصوت مخنوق: - هل... هل... بإمكان ابنتي آن ماري أن تأخذك من الفندق وتجيء بك إلينا؟... سيكون هذا أفضل... لعدة أسباب. أنت ستتناول غداءك في الفندق، أليس كذلك؟

- بطبيعة الحال، أجبت، بكلّ سرور.

وبالفعل بعد ساعة- وكنت قد أنهيت غدائي في فندق صغير بساحة السّوق - دخلت قاعةَ الأكل آنسةٌ قد تقدّمت في السّنّ، في لباسٍ بسيط، وهيئةٍ من يبحث عن شخص مّا. عرّفتها بنفسي

وأعربت لها عن استعدادي لمرافقتها في الحال لرؤية المجموعة. ولكنّها طلبت منّي، وقد احمرّ وجهُها فجأةً، وبنفس الحرج الّذي كنت لاحظته على أمّها، أن أسمح لها أوّلاً بالتّحدّث إليّ. لمحتُ في الحال أنّها تُجهد نفسَها كي تقول لي ما يشغلها. فكلّما همّت بالكلام، احمرّ وجهُها القَلِقُ حتّى أذنيها، وتقبّضت يداها على طيّات فستانها. وفي آخر الأمر، بدأت تتكلّم في تردّد، واضطراب لا يتوقّف:

-أمّي أرسلتني إليك... لقد حكت لي كل شيء، و... نودّ أن نتوسّل إليك... يعني أن نعلمك، قبل أن تزور والدي... سيرغب بطبيعة الحال في أن يُطلعك على مجموعته... وهذه المجموعة... ليست كاملة في الحقيقة... تنقصها سلسلة من القطع... بل عدد كبير للأسف...

تنفّستْ بعمق، ثمّ قالت لي بصوتٍ لاهثٍ، وهي تواجهني بنظرتها:

- ينبغي أن أحدّثك بصراحةٍ تامّة... أنت تعرف شِدّة هذه الأيام، سوف تفهم كلّ شيء... بُعيد الحرب، فقدَ أبي بصره كلّيًّا... وقبل ذلك، كثيرًا ما كانت عيناه تؤلمانه، ولكن مع ضيق الحال، صار كفيفًا تمامًا. ورغم أعوامه السّتة والسبعين، ما فَتِئ يريد أن يذهب إلى فرنسا. وعندما علم أنّ الجيش لم يعد يتقدّم بسرعة كما في العام 1870، اضطرب اضطرابًا كبيرًا، وضَعُف نظرُه بشكل مرعب. وبغضّ النّظر عن كلّ هذا، ظلّ في صحّة جيّدة. فحتّى وقتٍ قريب، ظلّ قادرًا على الخروج

إلى الصّيد طوال ساعات كما كان يهوى. أمّا الآن فقد انتهت نُزْهَاتُهُ. ولم تبق له غير متعة وحيدة، مجموعته. كان ينظر إليها يومًا بعد يوم... وفي الحقيقة، هو لا يراها، بما أنه لم يعد يرى أيّ شيء، إلاّ أنّه كان يُخرج في ظهيرة كلّ يوم كامل حاملات الورق من الخزانة، ليجسّ على الأقل رواشمه الواحدة تلو الأخرى، حسب التّرتيب الّذي وضعها فيه، ويحفظه عن ظهر قلب منذ أعوام... لم يعد اليوم يحفل بأيّ شيء آخر. فكان لا بدّ أن أقرأ عليه من الصّحف إعلانات البيع في المزادات. فكلّما ارتفعت الأسعار زادت سعادته... لأن أبي - وهذا أفظع ما في الأمر - لا يفهم شيئًا من الأسعار الحاليّة، ولا ما يجري في عصرنا... فهو يجهل أنّنا خسرنا كل شيء، وأنّنا لم نعد نستطيع العيش بمعاشه أكثر من يومين في الشّهر... زد على ذلك، فهذا ليس كلّ شيء، للأسف، أنّ زوج أختي مات في جبهة الحرب، فبَقِيَتْ وحيدة مع أربعة أطفالٍ صِغار... ورغم ذلك، لا يعلم أبي شيئا عن مصاعبنا المادّيّة. في البداية قلّصنا مصاريفنا، قلصّناها أكثر من ذي قبل. وكان ذلك كلّه دون طائل. ثم بدأنا نبيع - دون أن نلمس، بالطّبع، مجموعته العزيزة... بعنا المجوهرات القليلة الّتي كنّا نحتفظ بها. يا إلهي! لم تكن ذات بال، فقد أنفق أبي منذ ستّين عامًا آخر بفينيغ من مدّخراتنا في شراء الرّواشم.

وذات يوم، لم يعد بأيدينا أيّ شيء... فلم نعد ندري ما نصنع... عندئذ... عندئذ... بعتُ أنا وأمّي قطعة من مجموعته. وما

كان أبي ليسمح بذلك أبدًا لأنه لم يكن يعلم كم أضحت الأيّام شديدة، فهو لا يتصوّر كم هو صعب الحصول على قليل من الغذاء. كان يجهل أيضًا أنّنا خسرنا الحرب، وخسرنا الألزاس واللورين. لم نعد نقرأ عليه تلك الأخبار من الصّحف، حتّى لا نعكّر مزاجه. «كان ما بعناه أثرًا نفيسًا جدًّا، رسمًا مطبوعًا لرمبرانت. دفع لنا التّاجر فيه آلاف الماركات. وكنّا نأمل أن نكون في مأمن لسنين طويلة. ولكن أنت تعرف كيف تنهار قيمة الأموال... فقد أودعناها في البنك، ولكن بعد شهرين لم يبق من المال شيء. فاضطررنا إلى بيع روشمًا ثانيًا، ثم ثالثًا. وكان التاجر يتأخّر كثيرًا في إرسال النّقود، وهو ما يُفقدها قسطا من قيمتها. ثم جرّبنا البيع في المزاد العلني. ولكن حتّى هنا أيضا، خدعونا، رغم ما قدّموه من مبالغ عظيمة. فعندما تصل تلك الملايين، تغدو مجرّد قصاصات من ورق. وهكذا تشتّتت كلّ الألواح، باستثناء واحدة أو اثنتين، وكنّا نفعل ذلك لا لشيء إلاّ لنسدّ أشدّ حاجاتنا إلحاحًا. وأبي المسكين لم يشكّ في شيء.

«لذلك اعترى أمّي خوفٌ شديد حينما جئتَ اليوم... فعندما يفتح لك حاملاته سيُفتضح الأمر... فقد سرّبنا في الحاملات القديمة الّتي يعرفها جيّدًا باللّمس نُسخًا من ورقاتٍ تُماثل تلك الّتي بيعت، حتى لا يتفطّن لشيء عندما يجسّها. فهو يتذكّر ترتيبها بدقّة.ويحسّ حين يتأملها بنفس الفرح الذي كان يعتريه سابقا، شرط أن يجسّها ويعُدّها. ثمّ إنّه لا وجود في هذه

البلدة الصّغيرة لشخص يراه أبي جديرا بأن يُعجب بكنوزه... فهو يحبّ بشغفٍ مسعورٍ كلّ روشم من رواشمه حتّى أنّه قد يموت حزنًا لو داخله شكّ في أنّ ما يتلمّسه بأنامله قد تشتّت من زمن بعيد. فأنت أوّل شخص يظنّ أبي أنّه سيشرّفك بالاطّلاع على مجموعته منذ أعوام، منذ وفاة أمين مكتب الرواشم بدرسدن. لذلك أتوسّل إليك...»

وفجأةً رفعت تلك الآنسة المتقدّمة في السّنّ يديها نحوي ونظرت إليّ، وقد تخضّلت عيناها بالدّموع، وقالت:

«... نتوسّل إليك... لا تكن سببًا في تعاسته، لا تكن سببًا في تعاستنا... لا تحطّم هذا الوهم الأخير. ساعدنا على إيهامه بأنّ كلّ رواشمه، تلك الّتي سيصفها لك، مازالت هنا... أنا واثقة من أنّه لو رابه أدنى شك، فلن يعيش بعده. قد نكون أسأنا التّصرف تُجاهَه، ولكن لم تكن بيدنا حيلة: كان ينبغي أن نعيش... والحياة البشريّة، حياة أربعة أيتام صغار، أبناء أختي، كانت أهمّ من كلّ الأوراق المطبوعة... وإلى حدّ هذه السّاعة، لم نحرمه من أيّ فرح من أفراحه؛ فهو سعيد بأنّه يستطيع بعد كلّ ظهيرة أن يتصفّح طيلة ثلاث ساعات حاملات أوراقه، ويتحدث مع كل روشم من رواشمه كما يتحدث مع صديق. واليوم... قد يكون أسعد يوم في حياته، إذ هو ينتظر منذ أعوام فرصة إظهار كنوزه لأحد العارفين. لذا، أتوسّل إليك، ويداي مضمومتان... لا تحطّم آخر نعيمٍ له!».

كلّ ذلك قيل بصوت فيه من قوة التأثر ما يصعب عليّ نقله بأمانة. ويا للأسف، فقد صادفت عددًا من النّاس البسطاء سُلبوا ممتلكاتهم وخُدعوا بالتضخم المالي بطريقة مخجلة ودنيئة، أناس اختطف منهم، من أجل كسرة خبز، أفضل ما لديهم من نفائس، هي ميراث أجدادهم؛ ولكن هذه المرّة، جاد القدر بحالة فريدة هزّتني هزًّا مخصوصًا. ومن نافلة القول أنّي وعدت بكتمان السّرّ بقدر ما أستطيع.

ذهبنا معا إلى بيته. وفي الطّريق، علمت باشمئزاز بأيّ عُملة تافهة دفعوا إلى تينك المرأتين المسكينتين الجاهلتين واستغلّوهما، فزادني ذلك إصرارًا على القيام بأقصى ما أستطيع من أجلهما. صعدنا المدرج. وعند عتبة الباب، تناهى إلى سمعنا صوت الرّجل العجوز الصّاخب مرحّبا: ادخل! ادخل! لا شكّ في أنّ سمعه المرهف، سمع رجلٍ كفيف، قد التقطَ وقع خطانا على السُّلَّم.

- هرمان لم يستطع النوم اليوم. كان في شوق كبير لأن يُطلعَكَ على كنوزِه، قالت العجوز الصّغيرة مبتسمة. بنظرة واحدة، جعلتها البنت تحزر موافقتي. كانت الطّاولة مغطاة بحاملات الورق المكدّسة. وما إن أحسّ الأعمى بيدي، حتّى أمسك ذراعي مرحّبًا وأجلسني.

- حسنًا! لنبدأ فورًا! يوجد الكثير الكثير... وسادة برلين لا يملكون الوقت أبدًا. هذا الكرتون الأوّل، إنّه المعلّم دورر كاملاً تقريبًا، كما ستتأكّد بنفسك، انظر قليلاً... إنّها نماذج

فاتنة كل واحد فيها يضاهي الآخر في الجمال. ولتحكم بنفسك! وكشف عن الورقة الأولى: «الحصان الكبير»!

وبمنتهى الحيطة، كأنّه يلمس شيئًا هشًّا، سحب من الكرتون حاشية صورة كانت تؤطر ورقة مصفرة، لا غير؛ وبحذر، أوقف، بأطراف أصابعه، أمام عينيه الكفيفتين ورقة عديمة القيمة. تأمّلها لعدة دقائق متحمّسًا؛ وإن كان لا يرى شيئا وهو يمسك أمام عينيه الورقة الفارغة في طرَف ذراعه، فقد كان وجهه يعبّر عن نشوة الإعجاب السّحريّة. فجأة، ولا ندري هل كان ذلك انعكاسَ الورقة أم نورًا داخليًا، شعّت حدقتاه الجامدتان الميتتان بوميض سماويّ.

- بجدّ! قال بفخر، هل رأيت أجمل من هذه النّسخة المطبوعة؟ كم هي صافية! وكم يبدو أصغر تفصيل واضحًا بجلاء! لقد قارنت هذه الورقة مع أنموذج درسدن: أي نعم، لقد بدا مظلّلاً وضبابيًّا. والمصدر! انظر هنا...» قلب الورقة وأشار بظفره إلى أماكن دقيقة في القفا، فجعلت أدقّق دون شعورٍ في ما إذا كانت العلامات لا تزال موجودة هناك. - هنا أمامك دمغة مجموعة ناغلر، وهناك دمغة مجموعة ريمي وإيديل. لم يخطر ببال أسلافي الأمجاد أنّ رواشمهم ستنزل يومًا في شقة صغيرة كهذه.

أحسست بقشعريرة في ظهري حين سمعته يمتدح، دون أن يرتاب في الأمر، ورقةً بيضاءَ برمّتها. وعندما أراني، بأطراف أصابعه، وبالمليمتر تقريبًا، علامات أصحاب مجموعات لم يعد لها من وجود

إلاّ في مخيّلته، خيّل لي أنّي أتابع مشهدا سحريّا. أحسست باختناق رهيب في حنجرتي، فلم أحر جوابا. غير أنّي، وأنا في غمرة الذّهول، رفعت عينيّ نحو المرأتين، فلمحت من جديد أيديهما مرفوعتين، وهما ترتجفان في اضطراب، تتوسّلان إليّ. عندئذ حزمت أمري وتقمّصت دوري.

- شيء لا يصدّق! تمتمت أخيرًا، يا للنّسخة العجيبة!

فما لبث وجهه أن أضاء بفخر:

- ولكن هذا ليس شيئا ذا بال، قال ذلك بنبرة الظّافر؛ ينبغي أن أُريَك الـ«ماليخوليا» و«آلام المسيح»، نسخة مزوّقة تكاد تكون فريدة بجودتها هذه. انظر، ألا ترى هذه النَّضارة، وهذا اللّون السّاخن وهذا النّسيج اللّطيف؟» مرّة أخرى عادت أصابعه تتّبع انحناءات خياليّة: - ثمّة ما يجعل أولئك السّادةَ باعةَ اللّوحات ومديري المتاحف ينقلبون على قفاهم!

وتواصل هذا الخطابُ المفرط في الظّفر على هذه الوتيرة طيلة ساعتين كاملتين. كلاّ، لا يمكن أن أصف لك الأثر المدهش لذلك العرض المتباهي لمائة ورقة أو مائتيْن - من الورق التّافه أو النّسخ البائسة - ولكنّها في ذكرى ذلك الرّجل المأسويّ الّذي لم يشكّ في شي، كانت شديدة الواقعيّة على نحو لا يصدّق وهو ما جعله يصفها ويحتفي بها الواحدة تلو الأخرى دون أن يخطئ، وفي أدقّ تفاصيلها الصّغيرة. المجموعة الخفية، المتناثرة من زمن بعيد في أنحاء العالم، مازالت موجودة سليمة عند ذلك الكفيف، عند ذلك الرّجل

المخدوع إشفاقا عليه. وكان في ولعه الرؤيوي شيء مثير للإعجاب حتّى أنّي بدأت أصدّقه أو كدت. وقد هدّدتْ صحوةٌ رهيبةٌ، مرّة واحدة، الطّمأنينةَ المسرنَمة لحماسه المهلوس لمّا شرع في التّباهي برقّة طبعته من «أنتيوبي» لرمبرانت (بالفعل، كانت لتلك النّسخة قيمة لا تقدَّر بثمن)، وشرعت أصابعه المرهفة تقتفي بمحبّة خطوط الرّوشم، دون أن تشعر أطراف تلك الأصابع الحسّاسة بهويّة اللوحة التي تجسّها على ذلك الورق العادي. قطّب جبينه وتمتم مُحْرَجًا: - إنّها الـ«أنتيوبي»، أليس كذلك؟» وعلى الفور، أمسكتُ الورقة المؤطّرة، متقمّصًا دوري، وطفقتُ، أصف بحماس، وبمنتهى الدّقّة تفاصيل ذلك الرّسم المطبوع الّذي تخلّد في ذاكرتي على نحو دقيق. عندئذ انبسطت أسارير وجه الكفيف المنقبض. وكلّما بالغتُ في الاحتفاء بها ازدادت قسمات الرجل الخشنة الذابلة تعبيرًا عن مودةٍ مرحة وفرحٍ عميق.

- أخيرًا يوجد من يعرف هذا الفنّ، قال ذلك في نبرة ابتهاج ظافرة، وهو يلتفت إلى المرأتين. أخيرًا يوجد من يؤكد لكما بدوره القيمةَ التي لا تقدَّر بثمن لأوراقي هذه. لطالما أنّبتماني مسيئتيْن الظّنّ بي، لأنّي رصدت مالي كلّه في هذه المجموعة. وهذا صحيح: طوال ستين عامًا، لا بيرة، لا خمر، لا تبغ، لا سفر مطلقًا، لا مسرح البتّةَ، ولا كتاب، لا شيء عدا الادّخار، الادّخار الدائم من أجل هذه الأوراق! ولكن في يوم من الأيام، ستريان: عندما أفارق الحياة، ستصبحان غنيّتين، أغنى من سكّان بلدتنا أجمعين، في مثل غنى أكبر الأثرياء في

درسدن. عندئذ سوف تباركان جنوني. في انتظار ذلك، لن تغادر أي ورقة هذا البيت ما دمتُ حيًّا. ليأخذوني أنا أوّلاً، ثم فَلْيأخذوا مجموعتي.

وكانت يده الثّقيلة، وهو يقول ذلك، تداعب برفق حاملات الورق الجرداء منذ زمن كأنّها كائنات حية. مشهد مرعب ومؤثر بالنسبة إليّ، لأني لم أر طوال كل أعوام الحرب وجهًا ألمانيًّا يشعّ بمثل تلك السعادة الصافية الغامرة.. كانت المرأتان تقفان بجانبه، غامضتيْن، مثل تلك الوجوه الأنثويّة في لوحة المعلّم الألماني، إذْ جِئْنَ لرؤية قبر المنقذ، فمكثن هناك واقفات أمام القبّة المحطمّة الفارغة، وقد بدا على محيّاهنّ مزيج من الفزع العميق والانتشاء الصّوفي، فرحات بالمعجزة. ومثلما أُثيرت النّساء القدّيسات في ذلك الروشم بإلهام المنقذ السماويّ، كانت هاتان البورجوازيتان الصغيرتان المسكينتان المائلتان إلى الشيخوخة والمبلوَّتان مأخوذتيْن بسعادة تكاد تكون طفولية لذلك العجوز الذي يضحك ويبكي في الوقت نفسه – كان مشهدًا بالغ التّأثير لم أر مثله قطّ. ولكن الرّجل لم يكن يَشبع من مديحي. كان لا يكفّ عن أخذ الأوراق وتقليبها، وهو يتشرّب كلّ كلمة من كلماتي بشراهة. وتنفّست الصّعداء حين رُفعت حاملات الأوراق الخادعة في النّهاية، فاضطرّ الرّجلُ مُكْرَهًا إلى إخلاء الطّاولة لشرب القهوة. ولكن ما قيمة هذا الارتياح وقد مازجه تأنيب الضّمير أمام ذلك الفرح الغامر الطّائش، أمام الحيويّة المفرطة لهذا الرّجل الّذي بدا كأنّه صَغُر ثلاثين سنة! روى لي ألف طرفة بشأن مشترياته وصفقاته المحظوظة. وكان، وهو ثمل من السّعادة، ينهض

كلّ مرّة، متلّمسًا طريقه رافضًا كلّ مساعدة، لكي يُخرج من جديد ورقة أخرى: كان مندفعًا ومنتشيًا كأنّه تحت تأثير الخمر. وعندما قلت له أخيرًا إني مضطرّ إلى الانصراف، ارتعب، وتجهّم وجهُه مثل طفل عنيد، وراح يضرب الأرض بقدمه من شدّة الغيظ ويقول هذا مستحيل، فأنا لم أر تقريبا إلاّ النّصف من المجموعة. ووجدتِ المرأتان صعوبةً كبرى في التّغلّب على عناده، وأفهمتاه بأنّه لا يمكن أن يمسك بي طويلا دون أن يُفوّت عليّ قطاري.

ولمّا قبل أخيرًا أن يخلي سبيلي، بعد مقاومة يائسة، حدّثني بصوت عطوف. وأمسك بيديّ، وداعبهما على طولهما بحساسيّة كفيف، كأنّ أصابعه كانت تريد أن تزداد معرفةً بي وتُعرب لي عن محبّةٍ تفوق ما تستطيعه الكلمات. «زيارتك أدخلت عليّ فرحةً، فرحةً كبيرة جدًّا»، قال مستهلاً كلامه بتأثّر عميق لن أنساه أبدًا. «ويا له من سلوان شملني لأنّي أفلحت أخيرًا، أخيرًا، أخيرًا في استعراض رواشمي العزيزة مرّة أخرى مع أحد العارفين! ولكن سترى أنّك لم تأت عبثًا إلى عجوز ضرير. أعدك بذلك. وأُشهِدُ زوجتي بأني سأضيف إلى وصيّتي بندًا أكلّف بمقتضاه مؤسستكم المحترمة ببيع مجموعتي في المزاد العلني. أنت من سيكون له شرف التّصرّف في هذه الكنوز المجهولة»، وكان وهو يقول ذلك يضع يده بحنان على حاملات أوراقه المهجورة، «إلى أن تتبعثر في مهبّ الرياح. عِدْني فقط أنّك ستُعِدّ كاتالوجًا جميلاً. سوف يكون شاهدة قبري، ولن أجد خيرًا منه».

نظرت إلى زوجته وابنته. كانتا مُتلاصقتيْن. وتنتابهما أحيانًا رجفة

كأنّهما تُشكّلان معًا جسدًا واحدًا يرتعد بنفس الانفعال. أمّا أنا، فقد شعرتُ بشيء من الجلال والوقار حين سمعتُ ذلك الرجل المثير للمشاعر يكلّفني، وهو لا يدري بأيّ شيء، بما يشبه مهمّةً تستوجب الثّقة، بإدارة مجموعته الخفيّة الّتي تبخّرت منذ زمن طويل. وعدته، وأنا متأثرٌ تأثّرًا بالغًا، بما لن أستطيع الوفاء به أبدًا. فشعّت عيناه الكفيفتان من جديد. أحسست أنّ ما يرجوه هو محاولة التواصل معي، أحسست بذلك من خلال حنانه وضغط أصابعه المداعبة الّتي كانت تمسك بأصابعي، عربون شكر وعرفانًا.

رافقتني المرأتان حتى الباب. لم تتجاسرا على الكلام، لأنّ أذنه المرهفة يمكنها أن تلتقط أدنى همس. ولكن كم كانت عيونهما المبلّلة بالدّمع تلمع اعترافًا بجميلي! نزلتُ المدرج مترنّحًا. كنتُ في قرارة نفسي خجِلاً. فقد جئت مثل ملاكٍ في حكايةٍ من حكايات الجنّيات إلى بيت أناس بسطاء، فأعدتُ البصر إلى كفيف طيلة ساعتين، فقط بتعمّد الكذب ومدّ يد المساعدة في خدعة ورِعَة، أنا الّذي أتيت في الواقع كصاحب حانوت تافه للحصول بمكرٍ على بعض القطع الثّمينة، فحملتُ معي أزيدَ من ذلك: إذ أمكنني، مرّة أخرى، أن أحسّ برعشة حماسٍ صافٍ، بنوع من النّشوة المشعّة بفضل الرّوح، نشوة منذورة للفنّ، على نحو يجهله معاصرونا منذ أمد طويل. هو -ولا يمكن أن أقول هذا الإحساس بشكل مغاير- إجلالٌ عميق يملأ قلبي، حتّى وإن ظللتُ أشعر بالخجل، دون أن أعلم في الحقيقة سبب ذلك. وعندما بلغتُ الشّارع، سمعت نافذة تُفتح بعنف وشخصًا مّا يهتف باسمي. لم يستطع الرّجل العجوز أن يمنع نفسه

من النّظر في اتّجاهي بعينيه الكفيفتين. كان يميل بجسمه كثيرًا خارج النافذة، فاضطرّت المرأتان إلى الإمساك به. وكان يلوّح بمنديل ويهتف لي: «رحلة سعيدة!» بصوتٍ صافٍ منتعش كصوت فتى صغير. لن أنسى ذلك المشهد أبدًا: وجه ذلك العجوز المرح الأشيب، هنالك، من أعلى نافذته، يحلّق عاليًا فوق المارّة المنهمكين القلقين المتذمرين – محصّنًا تحصينًا جيّدًا من عالمنا الواقعي ودناءاته بغيمة بخارية من وهمه النّافع. عندئذ تذكّرت ذلك القول القديم الصّادق، قول غوته على ما أظنّ: «هواة المجموعات هم أسعد النّاس».

«إنسان الذّاكرة»
تأمّلات في سلالة جاكوب ماندال

بقلم: أ. د. العادل خضر

يبدو أنّ الأدب قد ابتدع، قبل الفلسفة، فكرةَ «الإنسان الأرقى»النّيتشويّة، على نحو فتَن إمبرتو إيكو ودفعَه إلى تأليف كتابه الجذّاب «من السّوبرمان إلى الإنسان الأرقى». وهو مجموعة من المقالات كُتبت في مناسبات متفرّقة، ولكنّها عل تنوّعها ظلّت مشدودة إلى فكرة واحدة ثابتة تعود إلى غرامشي، ورَدَتْ في كتابه «الأدب والحياة القوميّة»، في الفصل الثّالث منه «الأدب الشّعبي»، حيث يقول: «أعتقد أنّه يمكن أن نثبت أنّ فكرة «الإنسانيّة الأرقى» surhumanité الّتي تُنسب إلى نيتشه لا يرجع أصلها ومنوالها النّظريّ إلى زرادشت، وإنّما إلى الكونت دي مونت كريستو». وللتّعمّق في هذه الفكرة شرع إيكو في القيام بسلسلة من التّحقيقات في مجال الرّوايات الشّعبيّة بمختلف تنويعاتها من ألكسندر دوما وفرسانه الثّلاثة وهم يحاربون الكاردينال رشيليو، إلى إيان فليمنغ، مبتدع شخصيّة الجاسوس الّذي لا يُقهر جامس بوند حامل الرّقم الشّهير 007. وقد شملت بحوثه في مجال «قصص البطولة» نماذج مختلفة من الإنسان الأرقى، وجدها في أبطالٍ مختلفي الطّبائع والقيم،

من مونت كريستو إلى روكمبول، ومن أرسين لوبان إلى طارزان، ومن جامس بوند إلى السّوبرمان.

وعمومًا يمكن اعتبار هذا الكتاب الشّيّق نزهةً رائقة في غابات السّرد المختلفة، في شعاب نوع من الأدب كثيرًا ما وُسم على نحو تحقيريّ بنعت «الأدب السّفليّ»، «sous-littérature» الّذي لم يكتسب آنذاك ألقاب نُبله حتّى يلتحق بمرتبة الأدب الرّسميّ. ولكنّه، في واقع الأمر، صنف من أصناف «الثّقافة السّفلى»، «sous-culture»، كانت فيه الرّواية الشّعبيّة (وأنموذجه الرّواية الأنجليزيّة في القرن الثّامن عشر) نتاج الصّناعة الثّقافيّة الّتي كانت تتّجه في ذاك الوقت إلى مستهلكين جدد من برجوازيّة المدن.

في رحاب تلك الثّقافة، وذاك الصّنف من الأدب، نشأت أسطورة السّوبرمان الّتي امتصّت كلّ الأساطير السّابقة من هرقل إلى بيتر بان، البطل المزوّد بمواهب خارقة. غير أنّ ما كان يجعل سوبرمان مختلفًا عن طراز الأبطال السّابقين هو أنّه ظهر في مجتمع صناعيّ أصبح فيه الإنسان مجرّد رقم داخل نظام يُقرّر له ما يفعل، وأضحت فيه القوّة الفرديّة مضطهدة مقهورة أمام قوّة الآلة الّتي حلّت محلّ الإنسان. في ذاك المجتمع تحتّم على البطل أن يكون مفرط البطولة حتّى يُلبّي، على نحو يتجاوز حدود الخيال، شروط القوّة الخارقة الّتي تغذّي استيهامات المواطن البسيط، فاستبدّت به أيّما استبداد دون أن يتوصّل إلى إشباعها أو إرضائها. فسوبرمان بهذا المعنى هو الأسطورة الأنموذجيّة لهذا الصّنف من القرّاء الّذي صار يستهلك

الرّواية في شكل صور مرسومة BD. غير أنّ هذا البطل الّذي نشأ في أسواق الرّواية الشّعبيّة، لا في رحم الأساطير القديمة، قد كانت صورته، خلافًا للمعهود، مزدوجة. فهو من ناحية يمتلك قوى غير أرضيّة، لأنّه أتى من كوكب آخر، فنشأ في الأرض وترعرع، واكتشف فيها قواه الّتي لا حدود لها. إذ يستطيع أن يطير في الفضاء بسرعة الضّوء، ويستطيع، بمجرّد أن يضغط على يديه، أن يحوّل الفحم إلى ألماس، ويستطيع بأشعّة إكس الّتي تخرج من عينيه أن يرى ما يوجد في أيّ جسم ولو من مسافات بعيدة لانهائيّة في بعدها، ويستطيع بسمعه الخارق أن يسمع كلّ الأحاديث مهما يكن مصدرها. وفوق كلّ ذلك هو بهيّ الطّلعة سخيّ معطاء، قد نذر نفسه لمحاربة قوى الشّرّ، فكان للشّرطة خير نصير. ولكنّه من ناحية أخرى يعيش بين النّاس البسطاء بهويّة زائفة حاملاً اسم صحفيّ يُدعى كلارك كانت Clark Kent، يبدو في الظّاهر خجولاً فَزِعًا متوسّط الذّكاء، مرتبكًا في تصرّفاته، يحمل نظّارة لنقص في بصره... وهو يخضع خضوعا تامّا لجبروت زميلته المتسلّطة الصّحفيّة لُويس لاين الّتي كانت تزدريه لأنّها كانت تقارنه بسوبرمان المغرمة به أيّما غرام. كلّ هذه الملامح الّتي تقمّصها كلارك كانت تمثّل على نحو بارع ملامح صنف القارئ المتوسّط المكتظّ بالعقد، المعرّض كلّ يوم لاحتقار أمثاله من البسطاء وازدرائهم. وبذلك صار سوبرمان بمقتضى قاعدة التّعاطف والتّماهي مع البطل يمثّل، «كلّ موظّف بسيط، في أيّ مدينة من مدن أمريكا يغذّي سرًّا الأمل في أن ينبعث يوما من أنقاض شخصيّته، إنسان أرقى، قادر على تعويض سنواته التّافهة».

* * *

وإذا كان إيكو قد فتنته فكرة غرامشي، فاجتهد في إثباتها من خلال دراسته لنماذج متنوّعة مختلفة من أبطال الرّواية الشّعبيّة فإنّ فكرة غرامشي في حدّ ذاتها يمكن أن تُوسّع أو تُستبدل تماما. فلا الكونت دي مونت كريستو ولا زرادشت ولا أيّ شخصيّة أخرى كانت أوّل من مثّل، ولا آخر من سيمثّل، الإنسان الأرقى، لأنّ أصول هذه الفكرة ضاربة في القدم، منتشرة في الكثير من الثّقافات، وإن كانت دائما ملتبسة التباسا عظيما بفكرة البطل الخارق.

فإذا سلّمنا بأنّ الأبطال لا تخلّدهم أعمالهم الخارقة فحسب، وإنّما الذّاكرة الّتي تمجّدهم وتجعل صيتهم باقيا على مرّ الزّمان، ثمّ استحضرنا في الآن نفسه أنّ أسياد الذّاكرة القدامى كانوا منذ الإغريق وغيرها من الحضارات القديمة، من الشّعراء والكهّان والحكّام العادلين، ثمّ اعتبرنا أنّ المتحكّمين في لعبة الخلود والنّسيان هم أسياد الذّاكرة، جاز لنا أن نفترض أنّ الإنسان الأرقى الأوّل كان في أصل النّشأة سيّدًا من أسياد الذّاكرة. فأن يكون إنسان الذّاكرة هو الإنسان الأرقى، ويمكن أن يكون السّوبرمان الأوّل، فتلك فكرة ليست بالجديدة. فقد عبّر عنها خورخي لويس بورخيس في مجموعته «تخييلات قصصيّة»، بشيء من الاختزال في غضون قصّته الرّائعة «فيونس أو الذّاكرة»، وهو يصف بطله إيريني فيونس بهذه العبارة الّتي أوردها على لسان بيدرو لياندرو إيبوتشي(وهو شخصيّة خياليّة) في مقال كتبه متحدّثا عن فيونس، هذا الفتى الآتي من أرياف أورغواي، بأنّه «المبشّر بمجيء كلّ إنسان أرقى»، وأنّه «زرادشت في

حال متوحّشةبلهجة محلّيّة». ويبدو أنّ مربط الفرس في هذه القصّة هو ذاك الحوار الّذي أجراه الرّاوي مع فيونس قبل نصف قرن، لمّا «بدأ إيريني يعدّد باللاّتينيّة والإسبانيّة حالات الذّاكرة العملاقة المذكورة في موسوعة «التّاريخ الطّبيعيّ»، كقورش، ملك الفرس، الّذي كان يستطيع أن ينادي على كلّ جنديّ من جيوشه باسمه، والإمبراطور ميثريدات الّذي حكم بالعدل باثنتين وعشرين لغة كان يتكلّمها النّاس في إمبراطوريته، وسيمونيدس الّذي ابتدع فنّ التّذكّر، ومترودورس الّذي كان يعلّم فنّ رواية ما سُمع مرّة واحدة بكلّ أمانة».

وقد وصف بورخس هذه الشّخصيّة في بعض محادثاته بأنّها شخصيّة شديدة الجهل، إلاّ أنّها تمتلك ذاكرة مثاليّة. فقد مات فيونس وهو في ريعان الشّباب رازحًا تحت أثقال ذاكرة رحيبة ثقيلة لا يحتملها أحد إلاّ الله. فمأساة فيونس أنّه لا يستطيع أن ينسى. ومعنى ذلك أنّه عاجز عن التّفكير، لأنّ التّفكير يقتضي التّعميم أو أفكارا عامّة، أي «أن ننسى» ما لا يحصى ولا يعدّ من الجزئيّات في الواقع. وهو نسيان لم يكن بطلنا بقادر عليه. فهو مثلا لا يستطيع أن يعيد تشكيل الماضي، وإنّما كان بمقدوره أن يُحييه. فما استغرق من الأحداث (س) من الزّمن في الماضي يقتضي أيضا (س) من الزّمن حين يستعاد مرّة أخرى في الحاضر. وينقل راوي القصّة أنّ فيونس قد فعل ذلك: «مرّتين أو ثلاثا، تمكّن فيها من إعادة بناء يوم بأكمله، ولم يتردّد أبدا في ذلك، إلاّ أنّ كلّ إعادة بناء كانت تستغرق يوما بأكمله. وقال لي: عندي لوحدي من الذّكريات ما يفوق ذكريات كلّ البشر قاطبة منذ أن كان

العالم عالما، [...] ذاكرتي يا سيّدي مثل أكوام القمامة.».

لِلِي هذه السّلالة من إنسان الذّاكرة، أو الذّاكرة المفرطة hy-permnésie، كان ينتمي بطل بورخيس. وهو نقيض «إنسان النّسيان». فقبل أن يصدمه الحصان ويجعله كسيحًا ملازمًا الفراش إلى الأبد منذ سنّ التّاسعة عشرة، عاش فيونس كأنّه في منام، ينظر دون أن يرى، وينصت دون أن يسمع شيئا، والأدهى من كلّ ذلك «كان ينسى كلّ شيء، أو يكاد». وإذا كان من المفروض أن تقلب الكوارث والحوادث الصّادمة الإنسان السّليم إلى إنسان «ينسى كلّ شيء» إذا ما أصاب دماغه عطب فإنّ حادث الحصان قد جعل من فيونس إنسانًا لا يستطيع أن ينسى شيئًا. وهذا الحادث العجيب يمثّل حالا من الأحوال القصوى الّتي يندر أن تصادفنا في الحياة اليوميّة، إلاّ أنّها شبه شائعة في الأدب والسّينما أيضا.آية ذلك شخصيّة أبي العلاء المعرّي الأدبيّة الشّبيهة إلى حدّ كبير بشخصيّة «فونس» التّخييليّة. فقد نقل مترجمو سيرته بعض الأخبار الّتي كانت تتحدّث عن سرعة حفظه المدهشة، وذاكرته العجيبة، نورد منها هذا الخبر: «حدّث هبة الله بن موسى المؤيّد في الدّين، وكان بينه وبين أبي العلاء صداقة ومراسلات، قال: كنت أسمع من أخبار أبي العلاء وما أوتِيَه من البسطة في علم اللّسان ما يكثُر تعجّبي منه، فلمّا وصلت المعرّة داخلا إلى الدّيار المصريّة لم أُقدِّمْ شيئا على لقائه، فحضرت إليه واتّفق حضورُ أخي معي، وكنت بصدد أشغال يحتاج إليها المسافر، فلم أسمح بمفارقته والاشتغال بها. فتحدّث أخي معي حديثا باللّسان الفارسي، فأرشدته إلى ما يعملُه فيها، ثمّ عدتُ إلى مذاكرة أبي العلاء،

فتجارينا الحديثَ إلى أن ذكرتُ ما وُصف به في سُرعة الحفظ، وسألته أَيُرِيني من ذلك شيئا أحكيه عنه، فقال لي: خُذ كتابا من هذه الخزانة، لخزانة قريبة منه، واذكر أوّله فإنّي أُورده عليك حفظا، فقلت كتابُك ليس بغريب إن حفظته، فقال: قد دار بينك وبين أخيك كلام بالفارسيّة إن شئتَ أعدْتُهُ، قلت: فأعده، فأعاد الحديث أجمع ما أخلَّ بحرف منه، ولم يكن يعرف اللّغة الفارسيّة. وهذا الخبر من العجائب.». مثل هذه القصّة وأضرابها تثير مسألة عودة ما مضى في الحاضر على نحو مُضَارِعٍ مطابق لما جرى وسبق أن وقع قبل اختراع آلات التّسجيل والتّصوير.

وإذا كانت ذاكرة فيونس المفرطة تسجيليّة لا تفرّط في شيء فإنّها تظلّ ممثّلة لصنف نادر من الذّاكرة هي الذّاكرة الحيّة الطّبيعيّة المثاليّة، تلك الّتي يتمتّع بها قلّة من النّاس، فتجعلهم في مصافّ الإنسان الأرقى. ولكنّها ليست الصّنف الوحيد طالما اعتبرنا فكرة الإنسان الأرقى موضوعا أدبيّا بالدّرجة الأولى، قد ترجم قصصيّا بطرق شتّى، تارة بواسطة الأبطال الخارقين من طراز السّوبرمان، وطورا بواسطة إنسان الذّاكرة المفرطة.

* * *

ويبدو أنّ الأدب والسّينما قد افتتنا بهذا الموضوع وعالجاه بطرق مختلفة. فقد استوحى ستيفان زفايغ موضوع قصّته «ماندیل بائع الكتب القديمة» من فكرة الإنسان الأرقى، وجسّمها من خلال شخصيّة جاكوب ماندال. وقد وصفه زفايغ وصفًا استبق فيه على

نحو عجيب ملامح السّوبرمان في هذه الفقرة البديعة. يقول: «فقد كان ذلك اليهوديّ الغاليسي الصّغير، النّحيل، القبيح الخلقة، الكثّ الشّعر، جبّارا من جبابرة الذاكرة. فكأنّ خلف ذلك الجبين الشّاحب اللّون، القذر، حتّى بدا كأنّه مغطّى برغوة رماديّة، قد انتقش، كما ينتقش على البرونز، بيد الذّاكرة الشّبحيّة اللاّمرئيّة، كلّ اسم وكلّ عنوان طبع على صفحة الكتاب الأولى. فقد كان في مستطاعه أن يستعرض لكلّ كتاب، سواء صدر أمسِ أو قبل مائتي عام، ودون تردّد، اسم مؤلّفه، ومكان الإصدار، وثمنه الجديد أو القديم إن كان مستعملا؛ بل كان يتذكّر بوضوحٍ عجيبٍ، تسفير كلّ كتاب، وتصاويره، ونسخه الأصليّة المدرجةَ في الملحق، بل كان يملك لكلّ الكتب، سواء تلك الّتي أمسكها بيده أو تلك الّتي رآها عن بعد في واجهة مكتبة، أو في مكتبة من المكتبات، رؤية صافية، كرؤية فنّان يتأمّل في أعماق روحه عملا غير بادٍ بعدُ لعيان الناس، ولّما يُشرعْ بعد في ابتداعه. فعندما يكون الكتاب، على سبيل المثال، معروضا للبيع بستّة ماركات في فهرس تاجر من براتيسبون، يتذكّر في الحين أنّ نسخة أخرى من ذلك الكتاب نفسه قد بيعت في المزاد العلنيّ بفيينا، قبل عامين، بأربع كرونات، ويعرف اسم المشتري. وفي الحقيقة، لا ينسى جاكوب ماندیل أبدا عنوانا ولا تاريخا. كان يعرف كلّ نجم، وكلّ نبتة، وكلّ خليّة نقاعيّة (حيوان مجهري يعيش في نقاعات المادّة العضويّة) في كون البليوغرافيا المتحرّك دومًا، والمتبدّل. في أيّ مجال، كان له باع أطول من سائر المتخصّصين. بل كان يعرف المكتبات أفضل من أصحابها؛ ويحفظ عن ظهر قلب ما يخزّنه التّجار الكبار

من كتب أفضل من هواة المجموعات المزوّدين بقوائم وجذاذات، رغم أنّه ليس مزوّدا بشيء آخر عدا سحر التّذكر الّذي لا يضاهى،».

لا يعرض زفايغ في هذه اللّوحة بورتريه جاكوب ماندال فحسب، وإنّما يرسم ملامح ذاكرة مفرطة ذات طريقة جديدة في التّذكّر مختلفة عن ذاكرة فيونس التّسجيليّة التّصويريّة.فهي شبيهة في نظامها بترتيب الفهارس، وتنظيم الموسوعات والكاتالوجات والمجاميع القديمة، وحتّى خزائن الكتب وبيوت الحكمة والمكتبات... ورغم ذلك، لم يكن جاكوب ماندال في تلك القصّة، القريبة إلى حدّ مّا من أجواء الدّيستوبيا السّوداء، مجرّد ذاكرة تختزن كمّا هائلا من الفهارس وثبت القوائم... إنّما كان يمثّل أنموذجا سابقا لأوانه من الإنسان الدّيجيتاليّ، الّذي يوجد في شكل افتراضيّ في ذاكرة الحواسيب، وفي شبكات الأنترنات العملاقة. فبطل زفايغ يمثّل آخر حلقة من سلالة إنسان الذّاكرة المفرطة. ويبدو أنّ نهاية هذا الإنسان قد تقرّرت إبّان ظهورالأنظمة الكليانيّة، حيث غدا الإنسان فيها «زائدا على الحاجة» حسب عبارة حنّة أرندت الصّادمة، ونفاية من النّفايات. ففي «مجتمعات الرّقابة» يراقب الإنسان كما تراقب الأشياء. ومن لا يراقب وينفلت من الرّقابة يلقى في جحيم المعتقلات إلى الأبد. ولعلّ طرافة هذه القصّة تعود إلى أنّها لا تعرض علينا بطلا يضاهي السّوبرمان والجبابرة في عظمة ذاكرته، وإنّما تعرض لنا تشخيصا لعالمها، أو للحظة وعيها الكارثيّ بعالمها في «نهاية التّاريخ». فحياة جاكوب ماندال هي حياة من كان يعيش خارج الرّقابة وخارج التّاريخ في عالم أفلاطونيّ علويّ مثاليّ متناغم، ولكنّه، بعد أن قبضت

عليه أجهزة الرّقابة من بوليس سرّيّ وشرطة وجيش... وتعرّض لعنفها وبطشها طيلة سنتين في صقيع بعض المعتقلات، انقلب دفعة واحدة من إنسان «خطير فريد» إلى «خرقة بائسة» هي أنموذج من «الإنسان الزّائد على الحاجة»، صنيعة المعتقلات، وهو أقصى ما بلغه الإنسان في درجات الشّرّ الجذريّ عندما يفرط ويفرّط في إنسانيته. يقول زفايغ واصفا نهاية بطله في لهجة جنائزيّة «شيء مّا قد انكسر في نظرته إلى الأبد، نظرته الّتي كانت فيما مضى هادئة وواثقة؛ شيء مّا قد تحطّم [...] لا بدّ أنّ عينيه المتعوّدتين منذ عشرات السّنين على رؤية أرجل الذّباب الدّقيقة من حروف المطبعة قد رأتا أشياء مرعبة في حديقة البشر المسيّجة بالأسلاك الشائكة [...] والأكثر فظاعة من ذلك كلّه هو: أنّ دعامة من دعائم ذاكرته المذهلة قد تهاوت، فهوى البنيان كلّه [...] لم يكن ماندیل كما كان ماندیل، ولا كان العالم كما كان. [...]، لم يكن ماندیل كما كان ماندیل. ولم يعد أعجوبة العالم، بل صار خرقة بائسة، ذقنا وملابس، يتنفّس بعسر، [...]صار فضيحة، وشخصا قذرا، نتنا، قبيح الهيئة، طفيليّا ثقيلا.». وبانقلاب جاكوب ماندال إلى «خرقة» يكون قد انتقل إلى عالم الأشياء اللاّبشريّ. وهو عالم من صنع الإنسان، وصورة من غرائزه ودوافعه، تعرب تارة عن أهوائه الإيروسيّة المحكومة بمبدإ اللّذّة، وطورا عن أهوائه الغضبيّة المحكومة بدافع الموت. فعالم الأشياء هو بوجهه عالم الاستهلاك والمتعة القصوى، ولكنّه بقفاه هو عالم الهلاك أيضا. فهذا العالم لا يعرّف فحسب بما يؤثّثه من البضائع ويشغله من الأشياء، وإنّما ينبغي أن يعرّف في الآن نفسه بسرعة تخلّصه المفرط منها. فمجتمع الرّقابة

هو ذاك المجتمع الّذي يتفنّن في صناعة الأشياء التّالفة، الأشياء الّتي لا تدوم كثيرا، بما فيها الإنسان. يكفي أن ننظر إلى ما يكتب على البضائع فسنجد في البطاقات الملصقة بها شفرتها الرّقميّة، وسعرها واسمها وتاريخ بداية استهلاكها ونهايته. فتاريخ الأشياء محدّد سلفا مراقب منذ البداية، معروف النّهاية. فالنّفاية بهذا المعنى ليست ما ألقي في المزابل وأتلف في المحارق، إنّما النّفاية هي الشّيء الّذي تعرف نهايته. لم نعد نحتاج إلى العرّافين وقارئات الفناجين، والمنجّمين لمعرفة المصير، وساعة الموت، فالنّهاية تسطّر منذ البداية، لأنّها صارت تخطّط في المخابر وتنفّذ في المصانع باحتساب المدّة الّتي تستغرقها عناصر المادّة وهي تقاوم فناءها، قبل أن يصيبها الفساد والتّحلّل. هل كان زفايغ يتنبّأ بمصير الإنسان وهو يتحوّل شيئا فشيئا كالأشياء والبضائع إلى نفاية من النّفايات؟ إنّ الوصف الأخير لجاكوب ماندال قبيل موته «يا للهيئة الرّثّة! لم يبق غير الجلد والعظام» يؤكّد أن بطله وهو في لحظاته الأخيرة كان يتهيّأ للعودة إلى حال اللاّعضويّ l'inorganique. وهي حال تترجم ما يسمّيه فرويد بدافع الموت الغرزيّ، pulsion de mort، ذلك الدّافع الّذي إذا ما اتّجه نحو العالم الخارجي، انقلب إلى دافع دمار وإرادة قوّة. وهذا الدّافع حاضر بصور شتّى في أدب زفايغ، في نهايات بعض أبطاله الفاجعة، كأنّه بذلك يتهيّأ لاستقبال موته، في منفاه الأخير.

إنّ جاكوب ماندال يمثّل جيلا كاملا من إنسان الذّاكرة، قد عرف أمجاد الذّاكرة الحيّة المفرطة وجبروتها، ولكنّه كان يمثّل في الآن نفسه نهاية ذاك الجيل الخالد، تلك النّهاية البائسة الشّبيهة بالكارثة

حين تتهاوى الأعمدة ويتهافت البنيان.

* * *

ولكن في عوالم الأدب العجيبة لا شيء يحيا ولا شيء يموت. فالأبطال الّذين يندثرون هنا في هذه القصّة، ينبعثون هناك في قصّة أخرى. فبعد زفايغ كان ينبغي أن ننتظر حوالي خمسين سنة حتّى يصدر ويليام جبسون مجموعة قصصيّة من الخيال العلمي سنة 1986، عنوانها «محفورا على الكروم» مثّلت آنذاك الأعمال الأولى لتيّار في الكتابة الأدبيّة ارتبط بصنف من الخيال العلميّ يدعى «cyberpunk» (حرفيّا السّيبرانيّة المارقة) كان ويليام جيبسون أحد أعلامه الكبار. تتضمّن هذه المجموعة قصّة «جوني الذّاكرة»، «Johnny Mnemonic» الّتي أخرجها للسّينما روبار لانغو، وأدّى دور البطولة كينو ريفيز. يعتبر جوني هذا سليل جاكوب ماندال. ولا يختلف عنه إلاّ في نوع الذّاكرة. فقد أصبحت في هذه القصّة صناعيّة، بل ديجيتاليّة، في عالم لم يعد يعوّل فيه على الذّاكرة الطّبيعيّة الحيّة، وإنّما على ذاكرة من نوع آخر، هي خليط من الجسم البيولوجي وقد زرعت فيه أشياء إلكترونيّة من صنع التّكنولوجيا المتطوّرة جدّا. وهو يشبه جاكوب ماندال في وجوه كثيرة. فمهنته أيضا حمّال، هذا يحمل الكتب ليبيعها، وذاك يحمل لزبائنه معطيات رقميّة تشحن في شرائح من السيليسيوم زُرعت في جمجمته، وكانت تسمح له بتخزين مئات الميغا أوكتات من المعلومات الّتي كانت تتعرّض دوما للقرصنة والسّرقة، ونقلها بكلّ أمان.

يمثّل كلا البطلين، جاكوب ماندال في قصّة زفايغ، وجوني في قصّة جيبسون، ما يسمّيه ريجيس دوبريه بالإنسان الوسائطي، Hommedium، وهو إنسان متغيّر الوجوه في التّاريخ، إلاّ أنّ وظيفته ثابتة. وهي: نقل الأخبار والمعلومات مهما يكن نوعها. ولمّا كان هذا الإنسان ضلعا من مثلّث، هو المثلّث الوسائطيّ، وكانت أضلاع هذا المثلّث الثّابتة هي: الدّولة والأنتلجنسيا ووسائل الاتّصال، أمكننا اعتبار إنسان الذّاكرة في كلّ تجلّياته في التّاريخ ممثّلا لوسائل الاتّصال، بل مهيمنا عليها. ولا تتغيّر صور هذا المثلّث في التّاريخ إلاّ إذا تغيّرت طرق اشتغاله. آية ذلك أنّ أدنى تحوير يطرأ على ضلع من أضلاع هذا المثلّث ينعكس تأثيره حتما على الضّلعيْن الآخرين. فإذا ما حدثت على سبيل المثال ثورة في تقنيات النّقل كالانتقال من النّقل الشّفويّ الحيّ إلى النّقل الكتابي، أو الانتقال من الذّاكرة الحيّة إلى الذّاكرة الرّقميّة، فإنّ ذلك يحدث ثورة في تاريخ أنتلجنسيا مّا وتحويرا عميقا في طرائق اشتغال الدّولة. وقد مثّلت قصّة زفايغ أنموذجا رائعا يؤكّد أنّ طرائق اشتغال الدّولة الكليانيّة قد احتاجت في مجتمع الرّقابة الشّاملة إلى نوع جديد من الذّاكرة التّقنيّة، لها أعوانها الجدد، في جمع المعلومات وتخزينها والتّصرّف فيها. وعلى هذا النّحو يمكن اعتبار جاكوب ماندال، وقبله إيريني فيونس، أنموذج الإنسان الكارثيّ الّذي شهد، كدون كيشوت، نهاية عصر بأكمله كان يعوّل على خدمات الذّاكرة الحيّة وأنواعها المختلفة، وبدايات ظهور عصر الإنسان الدّيجيتالي.

ستيفان زفايغ

مانديل بائع الكتب القديمة

في هاتين القصتين، يرسم زفايغ بلغة الفن أثر الحرب حتى في من لم يشارك فيها، من خلال شخصيتين فريدتين، كلتاهما حبيسة عالم خاص بها وحدها.

مانديل، بطل القصة الأولى، عجوز ليس له من دنياه غير الكتب، مهووس بها هوسا صار بفضله مرجعا لكل طالب وباحث في فيينا وخارجها، يحفظ عن ظهر قلب عناوينها، وأسماء ناشريها، وأسعارها جديدةً ومستعملة، ولا يكسب من ذلك غير ما يقيم الأود. عاش حياته في شغل تام عما يجري من حوله، فلم يعلم أن النمسا التي لجأ إليها شابًا، كانت تخوض حربا ضروسا ضد بلاده روسيا.

وهرمان، بطل القصة الثانية، عجوز ضرير يملك تشكيلة أعمال فنية جمّعها من عرق جبينه، ثم ألزمه فقدانُ بصره البيت، فلم يعد يدري أن الحرب التي تجيئه أصداؤها عن بعد قوّضت الاقتصاد الألماني، وأن التضخم المالي أرغم أسرته على التفريط في لوحاته بأثمان زهيدة لضمان القوت.

نصّان مؤثران يعكسان مأساة الإنسان في عالم يتهاوى، كان زفايغ شاهدًا على انحداره، ومُنذرًا بما سيحيق به من دمار أشمل.

أبو بكر العيادي

ISBN: 978-9938-992-61-8

مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution

مسكلياني